الطبعة الثانية

محمد حسن علوان

صوفيا

رواية

الساقي

هكذا حياة الملائكة، رهانٌ مستمرٌ على حمل الضوء مسافةً أبعد، لذلك الكون لا ينتهي، والله يزيد، ويزيد، لا بد من مضمار كافٍ لأخلاقهم، لا بد من مرتع فيه يستبقون، وينشرون حكاية النور التي تسكنهم، ينطلقون بآيات، ويعودون بأخرى، كأن أعمارهم هي عدد الشؤون التي يقضونها في الخليقة، ثم موتٌ أولُ بعده عدة ميتات محتملة، تتفرق أجسادهم، وتعيد تركيب نفسها من جديد، على هيئة أخرى، ولكن لا تتذكر هيئتها السابقة أبداً، لا تتذكر منها طرفةَ عين، إننا نسميه موتاً، لأننا لا ننتقل، ولا نتحول إلا إلى رماد، إن الموت بالنسبة إلى الملائكة مختلف، ربما لا يعني أكثر من فقدان متكرر لذاكرة الحالة السابقة!


ISBN 1-85516-491-4
9 781855 164918




DAR
AL SAQI
الساقي

صدر للمؤلف:

سقف الكفاية (رواية)

الموقع الشخصي للمؤلف: www.alalwan.com

محمد حسن علوان



رواية



الطبعة الأولى ٢٠٠٤
الطبعة الثانية ٢٠٠٦

ISBN 1-85516-491-4

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

(١)

رأيتُ كيف تموتُ الملائكة، ورأيتُ كيفِ يشبه ذلك غروب الشمس الأولى من التاريخ، يوم لم يكن مخلوقٌ قد رأى الغروب بعد، ولا يدري أين راحت تسقطُ الكبيرة التي تضيئه منذ خُلق، ولذلك دهشته كدهشتي، وملامحه كملامحي، وحزنه مثل حزني أيضاً. كلانا استفهم الأمر من زاوية تخيفه، وتشبّث بخوفه حتى آخر رجفة. كلانا لم يتصور أن الأمر مجرد تبديل لنوبات العبادة في قصر الله، وإحلالٌ مستمرٌّ يتكرر دائماً في مصير ابنَي الكون الثابتين، النور والظلام.

كنتُ خائفاً إذ رأيتُ ملاكاً يموت، ورأيتُ القواميس تُكتبُ وتُلغى في لحظتين! والزمنُ يهوي مثل مثقابٍ مكسور، ورأيتُ الظلام يخنق ماهيته النورانية، ويغيبه بعيداً عني، وينفث سواده مثل بطن أخطبوط، رأيتُه يضمحلُّ مثل دِينٍ قديم، ويسجد جفناه لبؤرة عدم، ويختفي كرائحة مسافر، ويموتُ على شفا وحي قريب لم يصل بعد، ولا يستطيع أن يعود إلى أعلى.

هكذا حياة الملائكة، رهانٌ مستمرٌّ على حمل الضوء مسافةً

أبعد، لذلك الكون لا ينتهي، والله يزيد، ويزيد، لا بد من مضمار كافٍ لأخلاقهم، لا بد من مرتعٍ فيه يستبقون، وينشرون حكاية النور التي تسكنهم، ينطلقون بآيات، ويعودون بأخرى، كأن أعمارهم هي عدد الشؤون التي يقضونها في الخليقة، ثم موتٌ أولُ بعده عدة ميتات محتملة، تتفرق أجسادهم، وتعيد تركيب نفسها من جديد، على هيئة أخرى، ولكن لا تتذكر هيئتها السابقة أبداً، لا تتذكر منها طرفة عين، إننا نسميه موتاً، لأننا لا ننتقل، ولا نتحول إلا إلى رماد، إن الموت بالنسبة إلى الملائكة مختلف، ربما لا يعني أكثر من فقدان متكرر لذاكرة الحالة السابقة!

كنتُ تحت شراعٍ من الغيب الذي يُفلتُ أحياناً ويتجول في الأرض، متسربلاً بمللي من الأشياء التي حولي، وخوفي من الأشياء الأخرى، فرأيتُ الطريقة التي تستعاد بها مفاتيح الحياة المديدة من أجسادها، وتأملتُ من إهاب سادن الضوء ذلك الانسحابَ الخاشع نحو الأمام، والتجلي الهادئ نحو الأدنى.

لم يكن معراجاً، ولا اضطراباً هلوسياً ما، وليست هذه مقدمة قصة أو تمهيد فلسفة. إن رؤية الملائكة وهي تموت أبسط من تكريس معجزة ما، وأقل تحدُّباً من ظهر الذهول المغلوب على عمره. إن هذه الكائنات النورانية الشفافة عندما تموت، تموت في الأرض، في فوضاها الأزلية، وبين سكانها الذين ما فتئوا يعلقون أحلامهم في المشاجب العلوية.

وعلى ارتجاف أشياءٍ واهنةٍ جداً نراقب كيف تلفظ الملائكة

الدفق الأخير من النور، ولا نشعر بها، لأننا لا نفهم إلا شكلاً واحداً للموت، بينما الحالات البديعة التي تدهشنا دائماً تموت فيها ملائكة كثيرة ولا ندري، فلا شيء يريحها عند الموت أكثر من تلك الزوايا التي يتقن الله حشرها بين حالتين، وفي لمحاتٍ كونيةٍ عاجلة، لا مثلما يتيبّس البشرُ عند موتهم، وتسري فيهم البرودة الرتيبة.

ملاكٌ يموت في سقوط ثمرة، وآخر يموت في المنطقة المسحوقة بين جبين وسجدة، والذي يقضي تحت الخطى الساعية نحو شأن حميد، وبين جناحي فراشةٍ أغلقتهما عليه، وفي الشفاه إذا التقت أول مرة، وفي الدموع التي تنزل بقدر، ولربما ماتوا ميتاتٍ جماعيةً في ضحكات الجبال، وارتعاش الأوتار، واشتعال الفجر، وعثراتِ الأطفال، وكل حركةٍ مسرحيةٍ كونية نصفق لها شجناً، ولا ندرك أن وراءها حتماً، موتاً لائقاً بملاك!

هكذا تموت، موتها المختلف السامي، بعد الزمن الجليل الذي عاشته معلقةً في أصابع الله، أو نائمةً في تجويف عميق من عرشه، أو ساجدةً طوال قرونٍ تحت قدميه. هكذا تمارس طقوساً مختلفة للانطفاء، ومراسم لا نعرفها للخروج من الوجود، والاندماج فيه بماهيةٍ أخرى.

تعرف أنها ستموت، ولكن لا تعرف أنها ستتغير إلى هيئة أخرى، ثمة حدس سماويٌّ طفيف يجعلها تشعر بالإرهاق قبل أن يدخل في أجسامها بوقت، فيدبُّ في عروقها اللؤلئية سائل الوهن الثقيل، وترشح من جباهها قطراتٌ من زيتِ النهاية، ويشحبُ الضوء

تدريجياً في أجسادها، وتجفُّ الهالاتُ البيضاء التي تطوِّقُ الأجنحة، فتلتفُّ حول نفسها مثل الأقمار الكبيرة، وتنتظر!

الموافقون على الموت يقفون زُمراً على حافة بساط الله، يتحينون كل خطفة برق يسقطون معها من السماء السابعة في شهقةٍ طويلة جداً، أطول من كل شيء، وفي هذا السقوط يتبدَّدُ النور المتشظي وهو يومض بألم، ويمتلئ الطريق بالغبار الفضي الحزين، وتشيِّع النجوم مرورهم عليها بدفقة من نورٍ أزرق باه، يعرفه البعض، ولا أراه إلا في الليالي الخصيبة.

وقبل أن يصلوا إلى الأرض، يتحولون إلى أشياء مختلفة، غيوم، وضباب، وروائح، ومطر، ولقاح، وهواء، وأشعة؛ أشياء كثيرة مألوفة ترحل في أثير الطبيعة ليست إلا نُثار رفاتهم النقي الأبيض، هذه هي الطريقة التي يمزجنا الله بهم، وهكذا يخصِّبُ بنورهم الأرض حتى لا تعقم عن تنسيل الخير، والنقاء، والطهر، وهكذا يجد الحب دائماً مبرراته من الدهشة، وتلتقط الأعشاب نصيبها من الرائحة، ويفتح الله الدنيا في وجه الحشرة التي جعل عمرها يومين فقط، فلا تتذمر!

عندما كنتُ صغيراً كنتُ أفهم غير ذلك، حتى إذا كبرت، وصار يذهلني الملل القاسي، وأقدارٌ رتيبةٌ أخرى، صرتُ أقدر على شقِّ فتحة صغيرةٍ في وشاح السماء، أرى من خلالها مطبخ الكون وهو يتأجج نشاطاً، وأدركُ بعدها أن الملائكة التي لا تصنع نسيماً، أو ترسم شفقاً، أو تحرك غصناً، تواسي به القلوب الحافية، هي ملائكة مشغولةٌ بما هو أدهى... الموت!

(٢)

لم تكن ملاكاً، ولكنها تموتُ بالطريقة نفسها!

وأنا المتورط بالشفقة البادية على وجهي، ملاذها الأخير الذي تريد أن تراه لأول مرة، وآخر مرة، بينما العلاقة كلها ما زالت محبوسةً بين قوسين، مثل كل الجمل الاعتراضية التي تقبع بين الكلام بتوجس في انتظار ما يبررها، قبل أن تخلع قوسيها، وتعلن نفسها جزءاً من الكلام، يحق له أن يقال، ويكتب، وينتخب في ذهن النص.

كنتُ في فوضاي المقيمة بين الهاجس والقرار، ضعيفَ المقاومة أمام نزق المرضى هذا، وإزاء تلك الطريقة العشوائية الجميلة التي يخربشون بها على جدران الحياة قبل أن يتركوها، مثلما يعبث التلامذة بأشياء المدرسة يوم تخرجهم. كنتُ منساقاً بإرادتها، وأقول إنها تعيش برؤية جديدة برغم أنها توشك أن تموت، رؤية تستحقُّ أن أراقبها عن كثب، وأتملاها عن قرب، والأهم من ذلك أن أحقن بها الوقت المبتلى بالملل، حالة تستحق المراقبة.

لم تكن تلك آخر رغبة، بل إحدى الرغبات الأخيرة التي تتأرجح عليها حتى يأخذها الموت ذات دوخةٍ فلا تنتبه، وتظل تغني،

حتى لو جاء غناؤها عكس كل شيء، فمن الذي يصرُّ على حفظ النظام واتجاهات السير في اللحظات الأخيرة؟ إن الوجود نفسه أمام حالتها الغريبة ليحافظ على وقاره بصعوبة! مثل أبٍ صارم تحرجه إحدى بناته، وتحرّك عاطفته النادرة، فيضطرُّ إلى بعث قوانين طارئة، لم تتعود عليها الطبيعة!

كنتُ أجلس بين يدي موتها، وألوّن أضلاعي بغنائها الأخير، وأصفق بشجنٍ مزوَّرٍ أعمى، حتى يكتمل موتها تماماً، عندها، أكنس أحلامها اليابسة، وأسحقها في قعرٍ نحاسي صلب، وأذرُّها على السفح المخذول من العمر، وأمضي، مقبلاً شفتيها، ومطبقاً إياهما من بعدي، إلى الأبد.

هكذا اتفقنا، من دون أن نتحدث، هي ملاكٌ وافق على الموت، ويفتش لنفسه عن حالةٍ تليق بموته، ولذلك أختلقُ أنا معها حالة حب عابرة، مذهولة، عمرها أيام أو أسابيع، لا فرق، المهم أن تكون حالة تامة، لا ينقصها شيء أبداً. إن الحياة دأبت على أن تكون ناقصة، وفعل النقص فطرةٌ غالبةٌ عليها، ولا يوجد إنسان قد تذوّق حالةً تامة، مطلقة التمام، أبداً.

تتأملني بعينين وسَّعهما الألم المقيم فيهما منذ أشهر، وأتأمل في المقابل وجهها الذي يشي بالنقاء البكر، قبل أن يفتضّه الوهن ليبقى أشلاء نقاء. كل الإرهاق الذي تقع عليه عيناي مبررٌ بالتعب إذاً، وهو جليٌّ لعينَي أنيميٍّ مثلي، مهما اتخذت من زينتها الكثيفة ما تخفي به ذلك الشحوب المتصاعد، وتقمع تلك الصفرة التي تنهب جلدها بدأب، وتعلنها منطقةً موبوءةً بالجفاف، مقفرةً من الضوء.

الآن أنا حائرٌ ومشفق، أعقدُ ذراعيَّ أمامي عندما لا أدري ماذا أفعل بهما، أحاول أن أخلق ملامح تناسب الإطار الكئيب للصورة، هي التي لتوها أفاقت من إغمائها، في تلك الشقة البيروتية الواسعة، على حد الشاطئ، ذات الشرفة الكبيرة التي تستقطب باقتدار، كل أفق البحر.

وكل هذا الأفق عاجزٌ عن غسل إرهاقها، إنها منهكة بصيغة مضاعفة من الإنهاك، أهدابها ترتعشُ مثل الأعشاب النهرية التي يلعب بها التيار، والأصابع الأربعة التي آوتها في كفي يبدو كلٌّ منها يعاني انهياراته الذاتية الخاصة، بعيداً عن بقية الجسد، بينما يتحرك إبهامها على معصمي بوهنٍ شديد، وتوسل بطيء.

أصبحت أعضاؤها تفتقد التناسق الذي تطلبه حركتها مجتمعة، هي واهنةٌ حتى إذا حركت يدها تهمد البقية. لا توجد عافيةٌ تكفي لأعضاء تتحرك معاً، ولذلك أشعر بغرابة الاقتراب منها مؤخراً، وغرابة أن أستشعر حركة يدها في يدي، بينما يدها الأخرى ملوية تحتها، منذ أن دستها قبل دقائق لتحك ظهرها، ونسيت أن تسحبها، أو عجزت ربما!

صارت توجعني الغرابة، أنا الذي كنتُ أهفو إلى الأشياء الغريبة مثل قط جائع يمزق أمعاءه الملل! الغرابة التي جعلتني أقطع الأميال إليها مثل مصور فوتوغرافي يهرعُ وراء لقطة تنقذه من الطرد. كاد الملل يغدو بثوراً في وجهي، وجلدي، وبقعةً من الظل الرمادي الرتيب، تكسو كلامي، ونظراتي، ولكنها كانت جرعةً أكبر مما أحتمل، جرعة ملوثة بالحزن، مزّقت جوفي قبل أن تطفئ ظمئي!

جسمها ملقى على السرير مثل عنكبوت مبعثر السيقان! عنقها بارز بينما يسقط رأسها إلى الخلف قليلاً، ساقاها تحت اللحاف تتقاطعان مثل إشارة X، وعندما تغلق جفنيها لا ينغلقان معاً، بل ينغلق أحدهما قبل الآخر في صورة تصدم أعصابي بشدة، ولا تغيب عن ذاكرتي. على ذراعها بضع بقع زرقاء من دم تسرب تحت الجلد، وعلى ظهرها بقعة هائلة لها الشكل نفسه، أما شعرها فيابسٌ ومشتت، بعضه تحتها، وبعضه على الوسادة، وبعضه ملتصقٌ بعرق جبينها، وبعضه صريعٌ تماماً، متجه نحو السماء، كأنه سبقها فعلاً، ومات!

الآن تتحرك، أجذبها من يدها لتجلس، أجبرها على الجلوس وأعرف أني أرهقها، ولكني لا أتحمل غرابة جسمها الهامد، إنني أتراجع بشدة عن رغبتي الأولى في التفرج على حالة صوفيا الغريبة، حالة المريضة التي تعرف متى تموت. الآن أحاول أن أعيد الأشياء إلى مدىً أكثر ألفة، وحالة طبيعيةٍ أستطيع أن أتعامل معها من دون أن تهلكني الدهشة. كنتُ مثل الماشي المتعب الذي يسأل الله الراحة، فجاءته الراحة على هيئة شلل قاس! علاجٌ ممعنٌ في عكسيته، في ارتداده نحو الطرف النقيض، جئتُ مريضاً بالملل، أبحث عن الغريب المختلف، وعدتُ مبتلىً بالخوف من الغرابة!

وهي بيني يدي دميةٌ توشكُ أن تنتهي، أوقفها متى أريد، وأجلسها متى أشاء، لا أحد يتدخل لمنعي من التصرف بها برغبتي، وهي لا تعترض أبداً، بينما أستهلكُ من شذرات صحتها الطفيفة في إبهاجها، حتى لا أراها تنضب منها ببطء، وحتى لو كنتُ مخطئاً في

هذا، فكرتُ قبل دقائق أن الخطأ والصواب صارا يؤديان إلى نهاية واحدة في الحقيقة، لا تختلف!

بعد ربع ساعة من الأنين الخافت المتقطع، والطواف الذي تمارسه عيناها حول المحجر، والسعي الذي تسعيانه بين السقف والنافذة، بدأت صوفيا تستقطبُ جزءاً من قواها الغائبة، بدأتُ تتفاهم مع الغذاء الذي صبّه في دمها أنبوب التغذية، فاعتَدَلت بمساعدتي طبعاً، ثم رفعت اللحاف عن رجليها، وحركتهما بتعب، لتجلس على السرير، وبالآلية الغريبة التي تتعامل بها مع جسدها السقيم، وكأنها لم تعد تشعر به، ولا تبالي بتذمره المتصاعد، راحت تنزع اللواصق التي تثبّتُ إبرة التغذية في ظهر كفها الأيسر، وقامت من السرير مدفوعةً بيدين منهكتين، ومنحنيةً إلى الأمام بشكلٍ يفتح فرجةً كبيرة في قميصها الفضفاض، ويكشف عن نهديها المتباعدين بدون حمالاتهما، وهما يبحلقان في الفراغ بذهول، ويتشبثان بصدرها كأنما خافا أن يسقطا، وتصعد منهما رائحة جلد بلله العرق، وجفّ، ثم بلله مرةً أخرى وجف، عدة مرات . . .

وقفت متهادية مثل غصن خريفيّ، وألقت خصلات شعرها البني خلف ظهرها، ومالت نحو صدري كعصفورٍ طيب، ورحتُ أضمها بين ذراعيّ ضمّاتٍ قصيرة، وأداعب شعرها المسدل وراءها، وأغمغم في أذنها بعباراتٍ صغيرةٍ لا تُقنع. كنتُ منزعجاً من رائحة فمها الجاف، وأحاول أن أبيعها مواساتي بشكل لا يخفي ضجري جيداً، ولكني أعرف أن وعيها واهنٌ أيضاً بعد الخدر، مثل جسمها تماماً.

أبعدتها عني قليلاً، ونظرتُ إلى وجهها مباشرة. حاوَلَت أن تميل إليّ مرةً أخرى فأقمتُ بيدي كتفيها، التقت عيوننا فابتسمت لي ابتسامةً مطفأة، ثم ابتعدت عني، واتجهت إلى الحمام المفتوح، وفتحت صنبور الماء، وراحت تبلل يدها وتمسح بها على الوجه المرهق، ثم جمعت شعرها في يديها قبل أن تربطه برباط صغير، وتجمع خصلاتها الباقية، وتسحبها وراء أذنيها.

من أجل هذا الشعر المتماوج في نفسه مثل قوافل التجار الطيبين، قبل أن يذبل، ويتيبّس، كأن التجار خسروا، دَفَعَت هذه الفتاة الحزينة من رصيد عمرها الباقي عدة أشهر، أو عدة سنوات، كي تذهب به، كي تموت وهو معها، ولا يفارقها تدريجياً في الغرف البيضاء. ولو أنها وافقت على العلاج الكيميائي، واستسلمت لجولته الحارقة في دمها، وبدأت في هذه الجلسات الغليظة القاسية، لسقط شعرها حتماً، مختنقاً، مثل الطيور الملوثة!

لهذا كنتُ أشعر بأنه أجمل ما فيها، شعرها، لونه السادر في أوقات اليوم، يختلف بين الصباح والليل، لم تكن تعتني به كثيراً، يكفي أنها أنقذته من الموت، كانت تتركه يتداخل في بعضه كما يريد، ويبدو جميلاً، مثل فنجان القهوة، مهما حركناه، يعُد ليأخذ شكله السابق، ويتأملنا بهدوء!

صوفيا بررت أيضاً أن هذا العلاج الصعب ليس إلا إنعاشاً موقتاً لخلايا تحتضر أصلاً، ومن بعد ذلك يأتي الموت البارد حتماً، وقد آثَرَت أن تموت جميلة، متوّجة بشعرها البني كله، وليست صلعاء،

منتفخة الوجه والأطراف. لقد قررت أن تموت دفعةً واحدة، وألا يموت بعضها قبل بعض!

غازلتها قدر استطاعتي وهي تقف أمام المرآة. قبضتُ على أذنها بين شفتيّ كما تحب، وتنفستُ شيئاً من الهواء المرطب برائحة جسمها التي تفوح حوله، تلمّستُه مبدياً عبارات الإعجاب نفسها التي تضحك لها صوفيا دائماً، ولكنها لم تمنحني إلا ابتسامةً كبيرة، طافرةً بالشحوب. تركتها تستند إليّ، وأنا أنظر إلى وجهها في المرآة، وفيها يظهر طرف النافذة التي خلفنا، وما وراءها من مساء بيروت الذي بهت كثيراً بفعل الشتاء.

يبدو البحر كأنه لوحة مزيفة، في الغرفة التي لم تُفتح نافذتها منذ أيام، ولم يمر بها تيارٌ جديد، كانت رائحة الغرفة نفسها رائحة صوفيا، بكثافة أكبر، تجوس في ما بينها رائحة المطهر الذي تمسح به الممرضة الخاصة أدواتها قبل أن تجسها بها، المكان لم يكن هكذا عندما وصلت، كأن المرض يصيب الأشياء أيضاً، وتبدو واهنةً مثلها، أو أقل قليلاً!

على الجدار هناك تستفزُّ الموت، وتعلّقُ شهادته عليه، بكل العناد الذي اعتصرته من شفق حياتها المعكر، تتحدى بها اقترابه المهيب، وتحشد أمامه كل لامبالاة الأيام الباقية، وتدهن بها نفسها، ووجهها، وروحها الشفيفة، مثلما تدهن بعض الحشرات نفسها بمادة مرّة لا تستسيغها الطيور المهاجمة، حتى تستحيل بدورها إلى مرارة شابة، تفسد على الموت طعم روحها الفتية.

تقريرٌ مختصرٌ جداً، يليق بكونه إعلان موت، جاءها مختبئاً في مظروف بارد، يحمل فوقه زخرفة المستشفى، فضَّته ذات صباح كانت تستعد فيه للخروج إلى العمل، فخرجت منه الأبخرة البيضاء نفسها التي تخرج من أفواه الأطباء، وتتجه نحو أعيننا المرتابة. فضَّته مثلما تفضُّ الرسائل المعتادة التي تأتي من المستشفى، ولا تعدو كونها تذكيراً بموعدٍ مقترب، أو نتيجة لفحص دوريّ.

وقتها انتَحَبت كثيراً، والمكان الذي كانت تُقيمُ فيه قبل هذه الشقة ظل يختزن في ذاكرة حيطانه نحيبها حتماً. إن الحيطان في بيروت لها ذاكرة، تحفظ حتى أسماء القنابل، وألوان الفجيعة. أنا نفسي اختزنتُ بكاءها في ذاكرة هاتفي أياماً طويلة! لقد بكت صوفيا على الورقة حتى أشبعتها بالملح العشوائي المتكدس، وحارت دموعها في أمر هذا الحبر الملعون الذي لا يريد أن ينمحي.

عندما رأيتها قلتُ إنها ملعونة، الكلمات التي يكتبها الكمبيوتر البليد ولا يدري ماذا يكتب! وأي خبر سيحمله إلى عينين على مرمى بريد من الصدمة، كان مصيراً لا تفاوضه الدموع، والأوراق المصيرية دائماً تأتي محشوَّةً بالجبروت، صلفة، مغرورة، أكثر من المصير القادم نفسه!

اتصلت بي من حافة تلك الهستيريا، ومن خلف تلك الأميال التي تفصل بين بيروت والرياض. وبرغم أني كنتُ أمقتها إذا اتصلت وبكت، ولكني وجدتُ نفسي أرتجف، وبرودةٌ هائلةٌ تلتهم أصابعي، وتخترق أضلاعي ثم تتمدد في داخلها بشدة. لم أسمع من قبل انتحاباً

بهذا القدر من الانكسار، ولا صراخاً يحمل كل تلك الحرقة، والخوف، والوحشة. لم أحضر انهياراً مفجعاً هكذا كأن الزلازل كلها اتفقت على موعد واحد، وحده الموت يحشرنا في أنبوبٍ مكتوم، ويعزلنا عن كل الموجودات الأخرى، أي خوف هذا!

لم يكن بإمكاني أن أسيطر على حالة بكائها تلك، ربما كنتُ أبالغ قليلاً في وصف انفعالها، ولكنني لم أجرّب من قبل أن يُستقبل الموت مسبقاً بهذا الطريقة، وبشكل حتمي، ولولا هذا الذهول الذي تربّع في أفقي مثل كاهنٍ غامض، والرجفة العنيفة التي اعترتني عندما سرى فيّ تيار بكائها الفادح، لما غادرت الرياض، ولما أقبلتُ على صوفيا مثل طائرٍ بلا عينين، لأزرع قلبها وجسمها بالحب، قبل أن أطفئ سيجارة الملل التي تحرق فمي.

كنتُ أراهن على إنسانيتي، أو متعتي، لا يهم. شعرتُ بأن واقعها لا يحتمل الجدل، وحياتها لا تتسع لأي رفضٍ آخر في هذا الحيز الضيق الذي بقي. كان واقعها من الحتمية بحيث حدد واقعي أنا أيضاً، لم أعد أشعر بأن ثمة قرار يمكن أن يُناقَش، أو اتجاهات محتملة أخرى يمكن اتخاذها، كانت البوصلة عوراء جداً، وتشير إلى الشمال بالتهابٍ مجنون!

عندما أصبحت تلك الرسالة رهاناً محسوماً من قبل، أصبح بكاء صوفيا فاعلاً، لأنها كانت تفكر، وتمسح دموعها لتتراءى من خلفها عينان مختلفتان، جاهزتان لخطاب الورائيات، وتلك الآلات الكبيرة التي تتحكم في الحياة والموت، أصبحت تتكلم لغة الله، صوفيا،

عندما صار عندها يقينٌ أوسع من الكلام الذي تحتاج إليه، عندما دبَّ في جسدها سائل الوهن، وأصبح الدم غير الدم، والروح غير الزوح، أصبحت تملك أبجديات هذه اللغة العلوية، وكان تضييعي لفرصة اقتحام هذا الشأن المختلف، والاندماج في الحالة الغريبة أمراً غير وارد أبداً، في سلوك إنسان مهووسٍ بالتجريب، مثلي.

استعدّت صوفيا لموتها، وجاءت الاستقالة من البنك، وتصفية الحقوق، واستلمت دفعة التأمين الأولى، وحركت المال الذي كان يصلها من أخيها الوحيد، وتحرمه على نفسها لأنها لا تريده، واستأجرت الشقة البحرية المعلقة فوق عشرة طوابق، وعدة أجهزة طبية عادية، ومغذيات، وممرضة متفرغة، وباقتين من الورد الأبيض المبلل كل يوم، وصناديق كرز، وأسطوانات. استبدلت هاتفها السابق برقم جديد، ولم تترك عنواناً عندما غادرت شقتها السابقة، لم تترك مجالاً لشأن متأخر أن يبعثر انتظام الشؤون القادمة، وأي انتظام! حتى موعد الموت صار معروفاً!

كتَبَت رسائل إلى أشخاصٍ لا يفهمون لماذا تودّعهم صوفيا بهذه الحرارة. أناسٌ قليلون، هم الذين استبقتهم صوفيا في نوتة الأسماء الجديرة بالوداع، أخوها ذاته لم يكن منهم. ولما أقفلت آخر تلك المظاريف، فتحت هاتفاً طويلاً على رجلٍ وحيد في الرياض، كان ينتظر شيئاً مثلها منذ زمن.

وفي الشقة الجديدة، صعدت صوفيا على كرسي خشبي قصير، وعلّقت التقرير هناك، فوق السرير تقريباً، أميَلَ إلى النافذة، مثل

الإشارة التحذيرية التي تُزرع أمام قضبان القطارات، تخبر فيها من يأتي أن الموت يمرُّ من هنا قريباً، ولا يمنعها أن تنام تحته من دون خوف!

سيمر في هذه الشقة الفسيحة العالية، وتموتُ فيها صوفيا، وتحترق مزارع الزيتون في عينيها، سيغتصبها الموتُ أخيراً حيث لا تجدي الصرخات، بعد تحرشٍ مفاجئ، وحقير، ظلت تفتح فيه كل يوم شباكاً معشباً، يغلقه هو من ورائها. أخيراً حاصرها، فاختارت هي المكان كما اختار لها الأطباء الزمان، وتشبثت بالقرار الذي لم يعد لها ما تتشبث به غيره.

وأنا البليدُ البعيد، الممتلئ بالصحراء، والرتابة، والعقل الخائب، كنتُ جزءاً من القرار، ومنتدباً من بلادي لتشييع غصنٍ لبنانيٍّ أخضر، مقبلٍ على الجفاف، تبعاً لدبلوماسية الفوضى، وتراكم الملل، والرغبة في تكسير النمط السائد للشفقة!

لم تكن تعني لي الكثير آنذاك، ولكن عندما حضرت طغت أشياء أخرى. دبيب الأشياء الغريبة جعلني أفكر في أن موقفي لا بأس به. الأشياء الغريبة طالما جعلتني أفكر، لأنها لا تحدث لي كثيراً، وكأنها محاور نادرة تلتف حياتي عندها، وتركب طريقاً آخر، صوفيا شيء غريب بالنسبة إلي.

(٣)

كنتُ قد مللتُ شكلي ورائحتي، وتلك ليست صورة الملل العادية. الخطير في الأمر أني طوال السنوات الثلاثين التي سلفت من حياتي كنتُ قد ربيتُ سلوكاً مجنوناً؛ أن أتخلص من كل ما يثير الملل، أن أرميه ورائي مثل حذاءٍ ضيق ولا ألتفت إليه. كل شيء يثير الملل يستحق أن يُلعن كثيراً، ويُعاقَب، حتى الناس والأشياء، إنهم خنقونني مثل الغبار.

ولذلك كانت مؤشرات مللي من نفسي تقلبني رأساً على عقب. كيف أتخلص من نفسي؟ أنا الكائن المصاب بمناعة منعدمة ضد الملل أصبحتُ مملاً بدوري! وأستشعرُ ذلك بجلاء، وكل يوم أتقلب على ضوضاء هذا الشعور المقيت، ولا أستطيع أن أشرحه، ولا أفسره، ولا أن أقارنه بغيري من الناس. صرتُ أعيشُ مثل مومياء ملتفة بأقمشة عفنة، واقفة منذ قرون في صندوق خشبي، من يشك في أنها ملت كثيراً من نفسها، كما مللتُ كثيراً من نفسي!

أدركتُ أن الاختلافات التي تجري على العمر، والعوامل المتسارعة الطبيعية التي تأخذ حياتي في منحنياتها أثناء طفولتي وشبابي، كانت تقيني من هذا الملل المرتقب. إن العمر قبل الثلاثين

عمرٌ مليءٌ بالتجارب، والإثارة، والتغيرات، واكتشاف النفس والأشياء، ولكن الوصول إلى الثلاثين يشبه الاضطرار إلى الانخراط في خط أفقي، أنا الذي تعودت على الخطوط العمودية التي تصعد نحو الأعلى، وتتغير، وتتحرك بسرعة، لا أستطيع أن أعيش حالةً ثابتةً موازيةً للزمن، لا بد من أن أخترق الزمن نفسه، أطعنه في خاصرته، كما فعلتُ مرات عديدة في مراهقتي، وشبابي، ويفاع العشرين الذي انقضى. إن الركود فرصةٌ للعفن، لا يمكن أن أتعفن!

تباً لملل الثلاثين إذاً. حتى الأربعون خيرٌ منه، لا ريب في أنه عمرٌ أرفق بي من هذا العقد المتعب. إن الانحدار المتسارع نحو شيخوخة، التغير في هيئة الجسد، وهرم الحكمة، وبلور الأشياء، وزوايا الرؤية، شؤونٌ متجددة، لا يعنيني سلبها أو إيجابها، الذي يعنيني أن هناك شيئاً ما يتغير، ولا يقف في حنجرة الوقت مثل سكين صدئة!

راودتني نفسي أن أجلس أخيراً جلسة المتفحص، أقلب حقيبتي التي جمعتُ فيها كل حكايات العمر، وأعكف على فحصها. إنه حلٌّ قريبٌ تحرضني عليه حالة الانهيار التي صارت أقرب، ولكني عندما جلستُ فعلاً، وقلبتُ حقيبتي لتتساقط منها الأشياء، لم أجد ما يحرض على المراقبة، لم أجمع ما يستحق! لقد ضيّعتُ حياتي في المنجم الخطأ، ولم يبق في حقيبتي ما أقتات عليه في موسم الرتابة وعند بيات الثلاثين، ليس عندي غذاءٌ كاف لبقية العمر، ولم أدخر يوماً بعض الدهشة البيضاء لذلك الملل الأسود!

عندما كنتُ طفلاً كنتُ ألمس كل الأشياء بيدي، ليس لأني أريد أن أكتشف ملمسها، وشكلها، ولكن فقط كنتُ أرغب في تغيير حالتها التي هي عليه، أقلبها، أسقطها، أجعل الكرة الثابتة تتدحرج، والكأس ينكسر ويتحول إلى شظايا، والجدار يأخذ ألواناً جديدة. كانت تقتلني تلك الأشياء الثابتة البعيدة عن متناول يدي، اللوحات المعلقة على الجدران، المصابيح المتدلية من السقف، والأفق، آه كم أوجعني الأفق! كنتُ ريحاً صغيرة تجول في البيت، وتغيّر كل شيء، حتى ملابس أبي ذات المقاس الثابت، تصبح أصغر، ومليئةً بالثقوب، وحتى شعري كان يتغير كل أسابيع، بمقصي أنا. وعندما أعاقب، كان من المثير فعلاً أن أتخلص من حالة الحبور التي طالت، وأجرب الحزن، وطعم الدموع المالحة!

سمّوني ولداً شقياً، كم سيكون الأمر هيناً لو كانت مجرد شقاوة، كانت حالة عميقة في داخلي، لا أدري، خلل في العصب البصري، أو تمردٌ في خلايا الذاكرة، أو جنونٌ في النظام الكروموزومي، لا أدري، لا أدري، المهم أن أي شيء يمثل أمامي سأقبل به حتماً، جميلاً كان أم قبيحاً، شرط ألا يظل على حالته نفسها أطول من الوقت اللازم، ويصبح مملاً!

رسمتُ كثيراً، ومزّقتُ لوحاتي! ليس لأني أجيد الرسم، أو أزمع احترافه، ولكن حالة الرسم نفسها مغرية، العبث في البياض الجامد، إدخال الألوان، خلخلة النسق، قتل الثبات، لم أبرع كثيراً في هذا، كنتُ بعد أن أنتهي أكتشف أني خلقتُ بدوري ثباتاً آخر! أنا عدو الثبات الذي لا يريم، خلقتُ ثباتاً بيدي! مستحيل، وعندما أكتشف

هذا بعد أشهر، لا يكفّر عن هذا الذنب النفسيّ، تثبيت حالة، إلا أن أحول اللوحة إلى حالةٍ أخرى بفعل النار، أو التمزيق، أو الخربشات!

كنتُ أعشق ذلك الأسلوب في التصوير الذي يعتمد على تثبيت الكاميرا فوق زهرة، أو شرنقة، لأيام، ثم عرضها بصورة سريعة، فتتفتح الزهرة في ثوان، والشرنقة تصير حشرة، والعالم يكون أكثر نشاطاً وحرية. كنتُ أعشق هذه اللقطات، وأشعر بأن تكنولوجيا التصوير المسرَّع تنتقم لي من رتابة الورد، والشرانق، تنتقم لي من كل شيء ينمو ببطء، أو يتغير بخجل!

كل شهر كنتُ أنام في مكانٍ جديد، وإلا ارتادني الأرق! في المدرسة كان نصف نتائجي عالياً، ونصفها الآخر متدنياً جداً، وفي الشهر التالي، تعلو النتيجة التي هبطت، وتهبط التي علت، حسب مؤشر الملل عندي، ولذلك دائماً أنجح محفوفاً بدهشة المعلمين، وباستغرابهم من فرط مزاجيتي.

ولا بد من أن أنجح! يجب أن يعرف الجميع أن قضية النجاح والرسوب هي قضية حياة أو موت بالنسبة إلي، بغض النظر عن ذكائي أو غبائي، فلا يمكن أبداً أن أسمح بتكرار وجوه المعلمين، وملامح الفصل، ومواد المرحلة سنةً أخرى في حياتي. لا يمكن أن أدخل اختباراً مرتين، لا يمكن أن أدرس كتاباً سنتين، إن هذا يشبه الزجّ بي في حفرةٍ مظلمة لتاريخٍ كامل، ولهذا كانت حوافزي للنجاح حوافز مصيرية، وليست مرحليةً كبقية الطلاب!

لا عجب في أن المراهقة كانت أجمل أيام حياتي، أجملها على

الإطلاق. الأشياء تتغير بسرعة، وأنا حتى لا أستطيع أن ألاحق تسارعها الرائع! جسدي يتغير، وجهي يتغير، صوتي، تصرفاتي، رؤيتي الأشياء، وتعامل الآخرين معي، بعضهم يعاملني كطفل، وبعضهم كرجل، وأنا أطير فرحاً بتلك الهويتين اللتين أعيش بهما بين الناس. ما أجمل أن أعيش طفلاً ورجلاً في يوم واحد، إن هذا لا يقتل جرثومة الرتابة التي تؤذيني فحسب، إنه يسحقها تماماً، ينفيها، يرميها خارج الحياة!

كنتُ أستطيع أن أُصدر صوتين من حنجرتي، صوتَ طفل، وصوتَ رجل، والأكثر إثارة من هذا أني كنتُ أستطيع أن أمزج بين النبرتين لأخرج بصوت فتاةٍ ناضجة! أصبح الهاتف لعبتي الأثيرة، ومجهري الذي أتفحص به خلايا المجتمع، أهاتف أناساً لا أعرفهم لساعات، أغري شاباً ما بنبرة الأنثى، أغوص حتى قعره الأدنى من البشرية، وأتكلم مع فتيات يثقن بي باعتباري صديقة، وأتعرف إلى الكثير من حكايات البنات، وخبايا الأجساد والأرواح. حتى نبرة الطفل سحبتُ بها أصحاب النزعات المائلة الغلامية، وجعلتهم يسردون لي الحكايات الخيالية التي يجذبونني بها نحو عوالم شذوذهم التي لم أكن أعرفها آنذاك، قبل أن أجرب، أنا الذي لا تفوتني التجارب!

كانت المراهقة بالنسبة إليّ جنة من المتغيرات، مارستُ كل الحالات، أرهقتُ أمي لفرط ما كنتُ أخرج لها كل يوم بعادة جديدة، وسلوك مختلف. كانت تشتكي مني للجميع بلا استثناء، وتطلب الحلول من كل الأمهات، وتبحثُ عن حالة تشبهني لتعرف كيف

صارت، وإلى أين تتطور. طمأنتها جارتنا إلى أن المراهق في مرحلة تحول، ويحاول تقمص شخصيات كثيرة لاكتشاف شخصيته، وأنها مرحلة طبيعية جداً. ما أجمل أن تصف جارتنا مرحلتي العمرية بأنها مرحلة تحول. إن كلمة تحول ذات وقع لذيذ ومطرب عليّ، لم تعرف جارتنا أنه من الممل جداً أن أكتشف لنفسي شخصية واحدة فقط، أعيش بها بقية العمر، يجب أن أبقى في مرحلة تحول دائمة!

كنتُ أغير طريقتي في الكلام من حين إلى آخر؛ مخارج الحروف، سرعة الكلام، وحتى اللهجة أحياناً، وحركات اليدين، بل إني تماديتُ إلى حد افتعال التأتأة، والعطب اللساني! كرهت أمي كثيراً هذا السلوك، ولكن حتى أن تكرهني أمي كان حدثاً متغيراً يدفعني إلى العناد، بدلاً من حالة الحب الدائمة التي تحيطني بها منذ ولادتي كابن وحيد. مملٌّ هو الحب المستمر، جربتُ حالة أن أكون عدواً لأمي بعض الوقت!

أحببتُ النهار أكثر، كل التغيرات الكونية تحدث في النهار، وبوسعي مراقبتها عن كثب، بوسعي تسجيل هذا التغيير في مفكرتي الداخلية حتى لا يصرخ في داخلي صوت الملل. شمسٌ تشرق، ساعات وتنتصبُ في السماء، ساعات وتبهتُ وتنحني، ساعات وتغرب، وبينها يتغير الطقس، والضوء، وشكل النوافذ، وحالات الناس، ومواعيد العادات اليومية، عكس الليل، هذا الخامل الثابت على حالة واحدة، مغموساً في ظلامه الرتيب، إلى الفجر. كم يقتلني الليل، هذا الفاشل الذي لم يستطع اختراع حالة جديدة له منذ بدء الخليقة. كم أتمنى لو أستطيع انتزاعه من دفتر الكون، أو تحجيمه إلى

ساعات، الله لو أن الليل ساعات فقط! ساعتان أو أقل، ثم تشرق الشمس مرة أخرى، وتبدأ رحلة أخرى لي مع النهار المتجدد، المتحول، المتغير!

على عتبة العشرين أصبحت مساحاتي المتاحة من العالم أوسع، والعالم يقوم على فلسفة التغير أصلاً، هذا لا يعني أني شاذ عن الفطرة، ولكني ربما متشابهٌ مع العالم أكثر من اللازم! في العشرين امتلكتني هذه القناعة، وجعلتني أكثر ثقة بما أنا عليه، وأكثر انطلاقاً نحو فحص العالم، واكتشاف حالات تغيره اللذيذة. صار عندي سيارة مثلاً، وأصدقاء مختلفون. أصدقائي بالفعل كانوا مجموعات متباينة تماماً، لم يكن تبايناً يوافق حالاتي المزاجية المختلفة فقط، إن طبيعتهم لا تعنيني، الذي يعنيني فقط ألا ألتقي بثلة منهم يومين متتاليين، لا بد من بشر آخرين، عندهم نكاتٌ مختلفة، وطريقة حياة مختلفة، أكثر سمواً أو أكثر وضاعة، لا يهم، الذي يهم أنهم غير بعضهم، فقط!

أبي وأمي ماتا عندما بدأت أملُّ منهما، هكذا تواطأ معي الموت بشكل غريبٍ جداً! ولكنه كان تواطؤاً على أي حال، كان عمري خمساً وعشرين سنة، لا أريد أن أقول إن موتهما كان شيئاً مثيراً، ولكن إتيانه المفاجئ، واقتحامه المباشر لحياتي، خففا الكثير من ألم فراقهما. الناس لا يحبون الصدمات المفاجئة، ولكني أفضلها على تلك البطيئة التي تستقطب حزني ببطء. إني أفضل الصفعة المباشرة على انتظارها، لم يمرضا كأغلب الكبار، لم يتدحرجا ببطء عبر سنوات نحو نهاية الموت الحتمية، بل خرجا من البيت أصحاء،

وابتلعهما حادث سير، وماتا. في يوم واحد انتقل البيت من حالة امتلاء، إلى حالة خواء، برغم أن الخواء نفسه ليس حليفاً جيداً لشخص يكره الملل مثلي، ولكن في الوهلة الأولى كانت حالة البيت الجديدة أفضل من يواسيني، كلما اقترب مني الحزن كنتُ أتجول في البيت، وأستمتع بالاختلاف، من دون أب وأم، وأبكي راضياً!

آلت إلي كل أموال أبي بالطبع. لم تكن كثيرة، ولكنها تكفي لأجهز بها معركة كبيرة ضد الرتابة، معركة مصيرية، يقودها كل عظماء العالم، هذه التي تقتلني، وتحيل حياتي إلى جحيم فارغ، لا بد من أن أثخنها بالتجارب حتى الموت، لا بد من أن أحرّم عليها قلبي، وذاكرتي، ويقيني، ومرآتي، والقوانين التي حولي.

كان أول ما فعلته بعد انتهاء العزاء أن تركت العمل، وأيام العزاء الثلاثة مملة أيضاً، برغم أن اليوم الأول منها كان مثيراً، وراقَ لي أن أرى وجوه أقارب بملامح مفجوعة لأول مرة. كنتُ أتأمل خالي وهو يبكي مثلاً، وعيناه المسنتان تغرقان في دمع شحيح. دموع المسنين قليلة، غددهم الدمعية مسنة هي الأخرى، ولذلك كانت ندرتها مثار اضطراب خفي في أعماقي، نشوة وحشية!

لستُ غريب الأطوار، ولكن عقلي يشبه رقعة الشطرنج، يجب أن يأتي كل مربعين متجاورين بلونين مختلفين، وإلا لكانت رقعة شطرنج خاطئة إذاً! إن أي صورتين متشابهتين تتجاوران في عقلي تحدثان عندي توتراً وكآبة، لا شيء يجب أن يتكرر، حتى رقعة الشطرنج لا يجب أن تأتي بلونين فقط، وأنا لا أحب الشطرنج أساساً،

ولا أتحمل أن أمارس لعبة تتطلب أن أظل شارداً دقائقَ أفكر في النقلة التالية!

كم من الأشياء في الكون يمكن أن تتغير خلال دقائق وأنا شارد! مخلوقات جديدة تُخلق، براعم تتكون، شهب تسقط، وأخرى تولد في الفضاء، أقدارٌ تنزل، رياح، جرائد، ملايين يعبرون الشارع، حشراتٌ تبيض، أسماكٌ تغير أماكنها في البحار، وفنانون ينتحرون، ومطارات تلتهب بالحركة، وبيوتٌ يعاد طلاؤها. من هذا الذي يجد وقتاً ليشرد، دقائق، دقائق كاملة! ولو أنها امتدت لنصف ساعة أحياناً، فهذه جريمة فعلاً، جريمة بلادة بحق الكون!

الآن أنا في معادلة صعبة، سافرتُ إلى مدن كثيرة، وما زال هناك الكثير من المدن بالطبع، ولكني مللتُ من حالة السفر! مارستُ مهناً مختلفة، برغم أن ما ورثته عن أبي لم يكن يحوجني إلى العمل. عملتُ في بنوك، وشركات، ودوائر حكومية، فتحتُ مطعماً، ثم مؤسسة مضاربة، ثم نادياً صغيراً للألعاب، أقفلتُ كل هذا المشاريع قبل أن تتم أشهرها الأولى. تعلمتُ حتى النجارة، والحدادة، ومارستهما بيدي عدة أسابيع، وسافرتُ مع البدو أياماً لرعي الإبل، وكانت هذه الأخيرة أفشل تجربة، فالإبل حتى وهي تمشي تبدو ثابتة!! قتلتني! كنتُ أتمنى لو أُلهب وجوهها البليدة بعصاي، وليس هي فقط، بل حتى الكثبان الرملية، كأن الملل إلهها الذي تعبده!

الطبيب النفسي الوحيد الذي استشرته في حياتي قال لي إن لا شيء يشبه هذا، ربما كانت عارضاً من أعراض الكآبة، ولكن الملل لا

ينفرد بالنفس وحده، إنه لا يأتي جامحاً إلى هذا الحد كما تقول أخبارهم، من يقنعه، هو المعتدّ بما لديه، بأنه حلّ فاجعاً في نفسي؟ إذا كان لا بد من أن يكون عارضاً فربما كان من أعراض الجنون! ولكني هادئٌ مثل كهف، هل المجانين هادئون؟ أم إني حالة مختلفة، كل المرضى النفسيين يؤمنون بأن حالتهم مختلفة. إن التصنيف يؤذيهم، وهو آذاني، التصنيف نفسه كسلوك معرفي متأصل منذ الأزل هو رتابة علمية لا تنتهي، لم أعد إليه.

عندي مشاعر كثيرة، أنا لستُ مسخاً شاذاً عن العالمين، إن أحداً ممن يعرفني طوال عمري لم يعرف مما أكتبه الآن شيئاً، أنا نفسي أقف أمام الناس صورةً عادية، بل ربما أبدو مملاً بالنسبة إلى البعض! أحب الأفلام، والغناء، والكتابة الزخرفية، وأتابع الرياضة بشغف، الرياضة هي أمل الحياة بتغير صحي مستمر، ولذلك أحبها كثيراً، وألاحق أخبارها، وألعابها المختلفة من قناةٍ إلى قناة، ومن صحيفة إلى أخرى، وأتمنى لو أن العالم كله يتبع النموذج الأولمبي في تسيير أموره، نموذج السباق، والمنافسة، والإثارة، والأرقام القياسية. إن الأولمبيات دِينٌ حقيقي، والرياضيون أنبياء!

خبايا النفس تظل في النفس! وآلامي تظلُّ لي وحدي ما دامت لا يفهمها أحد، وعليّ أن أعتمد على نفسي في النفاذ من نار الرتابة التي تلاحقني دائماً، وتُبقي بيني وبينها مسافة ثابتة، فإن تلكأتُ في العثور على متغير جديد، لحقت بي، ولسعت ظهري، وإن وقعتُ في غمار تجربة جديدة، وَقَفَت بعيداً، في انتظار أن ينتهي مخزون دهشتي، وأبدأ في الملل!

تزوجت! برغم توجسي الكبير قبل هذا القرار، وبرغم أن الكثيرين يرون الزواج مستنقع رتابة وملل، ويسمونه قفصاً وقيداً وأسماء أخرى، فكان دخولي فيه يشبه اقتحام مريض الربو عاصفةً رملية! ولكن الأمور قضت بالعكس، كأن شيئاً كالسحر لمس حياتي فجأة، وبث سكوناً، وطمأنينة، وركوناً. كان يبدو كأني شفيتُ من مسّ التغيير الذي يجمح بي طوال عمري، وبرغم أني طلقتها بعد ثلاث سنوات فقط، إلا أني لا زلتُ أجهل أي معجزةٍ كبيرةٍ حققتها تلك الزوجة العادية حتى جعلتني أمارس هذه الحياة الوادعة طوال السنوات الثلاث!

ربما لم يكن من زوجتي، بل من مشروع الزواج نفسه، هذا الدواء الموقت، ربما كانت مساحته أوسع من أن ألمّ بكل مشاهده حتى أبدأ في الملل، فتطلّبني الأمر ثلاث سنين حتى تبدأ المشاهد في تكرار نفسها، وتصيبني بالملل. كانت تجربة ربما تنجح، تخيلتُ لو أن زوجتي تحمل، وأراقب بطنها يتغير تدريجياً، يكبر، يكبر. كم هو رائع أن تتغير ألصق الأشياء بنا، أجسادنا! كم أتمنى أن أحمل أنا، أن أمر بهذه التجربة الفيزيولوجية الضخمة بدلاً من زوجتي، ويصبح عندي جسد مختلف تماماً عن الذي تعودتُ عليه، لتسعة أشهر كاملة! ولكن لا أنا حملتُ ولا زوجتي، كان يبدو أنها عاجزة عن الحمل.

وليتها أنجبتُ أطفالاً! يكبرون كساق الفول كل يوم، يتغيرون، سيصبح بيتي هو مصدر التغير الذي أسعى إليه، ولن أحتاج إلى أن أطلبه من الخارج. سأنجب أطفالاً كثيرين، سأملأ البيت بهم، بصرخاتهم، بضجيجهم، بروائحهم، بحالاتهم المختلفة. سيصبح

البيت مسرحاً دائماً لا يثبتُ على مشهد واحد، سيصبح عقلي ثملاً جداً برغبته المدارية في الحركة الدائبة!

إنها اعترافاتي أنا، فأنا أمام الآخرين لستُ إلا شاباً في الثلاثين، في يده مالٌ يكفيه مؤونة الانتظام في عمل كما يفعل الآخرون. شاب لا يلفتُ الانتباه، ولا يثير التساؤلات، أنا نفسي مخلوقٌ رديء بمقاييسي الخاصة، مخلوق لا يتغير، مخلوقٌ رتيب!

كنتُ حزيناً عندما عرفتُ صوفيا، كما حاولتُ قبلها أن أعرف كثيرات في موسم التغيير، ولكن حتى المرأة أحياناً تتحول إلى نموذج عتيق. يتشابه سلوكهن في الحياة، لولا بعض الرتوش التي تميز بين امرأة وأخرى، الأريبة والبلهاء تصلان إلى نتيجة واحدة في الغالب، والعاهرة والمتدينة نقشٌ متطابقٌ في الشعوريات لا يختلف إلا في القشرة السلوكية. وحتى العجوز التي سقطت أسنانها تحمل في داخلها تعاويذ ثابتة لا تتغير من عهد الصبا، برغم أنهم يزعمون أن النساء أكثر مرونة في التشكل حسب أوعية الحياة!

كنتُ يائساً، وأشعر بأن الحياة انتهت، ولم يعد لديها من جديد تقدمه إلى نفسي النهمة. لم يعد هناك ما يمكنني أن أتدخل لتغييره، ولم تعد هناك أشياء كريمة تغير نفسها من أجلي من دون مقابل، أو بمقابل، لا يهم! كان يجب أن تتحول الحياة كلها إلى سيرك، حتى أحافظ على المستوى الأدنى من الرضى في صدري! ربما قبل أن أمل حتى ألعاب السيرك، استسلمتُ بقنوط لما سيأتي وحده، غريباً، مختلفاً، ينقذني من وطأة الملل . . . فجاءت صوفيا.

(٤)

قالت لي مرةً إن المدن الشرقية مثل الفضة، تتسخ، ولا تصدأ! وسجَّلتُ في مفكرةِ الأشياء تصوراً مختلفاً عن الفضة، كمعدنٍ يكرس في مشاعرنا صورة الحزن عندما يأتي نبيلاً مثل أغنيةٍ صوفية، أو أي شيء. أصبَحَت الفضة بعد ذلك هي الهاجس المرادف لحزني معها، حزني الرمادي الشاسع، المولود في الرياض منذ زمن، والمدفون في النفس مثل رايةٍ حربية قديمة!

اليوم كان دخولي الأول إلى جرحٍ مفتوح على شكل شقة، برغم الأزهار، والنور، والبحر، ووجه صوفيا البارق بالرغبة العنيدة، وعينيها المفتوحتين مثل حقيبتين تطمحان لاستيعاب الدنيا قبل الرحيل. تقدمتُ إليها بخطى كأنها تتراجع نحو الأمام، وأنا أشعر بأن كمية البؤس التي جئتُ لأخفف من حدتها أكبر من قدرتي، وكل مواهب الإنسان عندي، من المواساة حتى التهريج، لن توقف فيض الأسى المتدفق من عينيها مثل تنور نوح.

إنني مرتبك لأني لم أحضّر نفسي لقدسيةٍ كهذه. صحيحٌ أن حياتي كانت أكثر زخماً منذ سنوات، ولكنها ظلت خاليةً تماماً من تجربة كهذه، تجعلني أنقلب. بعض التجارب تنحرفُ بوجهي قليلاً،

ولكن تعود إلي ملامحي نفسها بعد أشهر قليلة، وينتهي الأمر. شقة صوفيا لم تكن كما تصورتها، وصوفيا كذلك، برغم أني رأيتُ صورها مراراً.

هكذا كنتُ أنا، وهكذا كانت هي، وعلاقتنا عمرها شهران، وهي مختلفة لسبب واحد، تجلّى لي بعد بضعة أيام معها. سببٌ واحدٌ فقط أنقذ علاقتنا بطوق الاختلاف قبل أن تغرق، سببٌ لا بد من أن أذكره، وهو أن صوفيا أنثى تعاكس قدَر الديمومة التي تشترطها النساء في الحب، وتأتي دونهن مثقلةً بحمى الرغبة الموقتة المبتسرة، وتدفع الحب بسخاء من لا يخاف أن يُفسد عليه حبيبه، أو يُفلس هو من عاطفته، فما بقي في جسمها من الحياة بالكاد يكفي لبضعة أسابيع أخرى كما تقول، وما تراكم في قلبها من العاطفة طوال عمر قصير بلا حب حقيقي يغطينا معاً ويزيد، فصارت كلما تناهت إلى مسامعها خطى الموت، ذلك الطحّان المقترب، كلما التقت بجسدي بصهيل خاص جداً!

وقبل أن أجيء، مزَّقت صوفيا أوراقاً من التقويم بعدد ما بقي لها من الأسابيع تقريباً، وصفَّتها مقلوبةً فوق الطاولة، وكتبت على ظهر كل ورقة عبارةً واحدة، تحمل كل ما تتمناه في ذلك اليوم الخلفي. رأيتُ تلك الأوراق القصيرة مصفوفة عندما وصلت، بعضها قلبته صوفيا لأن يومها قد مضى، والبقية كانت لا تزال منكفئةً على وجهها، تراقب السماء...

تقول صوفيا «هكذا أفضل، حتى يقرأها الله، حتى يرى أنها

بضع ورقاتٍ فقط، ولا ينبغي تعطيل إجراءات هبوط الأمنية، لم يعد هناك وقت!». ولا أدري أي تواطؤ قدريٍّ جعل الورقات الثلاث الأولى تتحقق تباعاً، فتتهيّأ الشقة التي اختارتها، ويعتدل الجو برغم تقلبات الخريف، ويخفت الألم في جسمها بعد نظام مسكنات جريء، وكانت ورقة اليوم قد انقلبت فعلاً بعد مدة قصيرة، وقرأتها، بخطها السميك، وعبارتها الوحيدة: «أن يأتي معتز!».

كانت تلحُّ على هذا المجيء، وكانت بيروت قابعةً في درج مكتبي كتذكرة سفر بتاريخ مفتوح، ووجهي كان مشكلة، وعقلي كان ثقباً كبيراً، واليوم والليل في قاموس زمني كانا محطتين خاويتين بلا حافلةٍ وبلا ركاب، وكان الملل عاتياً تماماً. فكرتُ في مناكفة الموت الذي يعبث فيها، ما دمتُ ملجماً في الحياة بلجام الضجر.

تخيلتُ أي إيمانٍ تمارسه صوفيا في لحظاتها الحرجة، وكيف تحولتُ أنا الذي لم تعرف عني إلا بضعة هواتف عشوائية، والقليل من الشكوى والاعترافات التي كنتُ أراودها بها في ليلة بوح يترجمها بيننا الحزن، إلى أمنية، إلى عشيقٍ يترجم لها الحب، ولو خطأً، في الأيام الأخيرة!

وأنا لا أرفض دهشة محتملة على بعد أميال، ولا أرى أن ادعائي حالةَ الحب التي تريدها صوفيا يعدُّ تزويراً في عاطفة صورية لا أكثر، لماذا لا يكون تغييراً في تعاطي الحب مثلاً؟ لماذا لا يكون اتفاقاً مباشراً لتقديم الحب كجولة سياحية موقتة، مقابل نصيبي من التجربة، والإثارة، والمراقبة؟! حسناً، حتى لو كان ذنباً عميقاً، فلماذا لا تكون تجربة الخوض في ذنبٍ جديد؟

الأطهار لا يذوقون النساء، بل إنها تلك القلوب التي لا تأبه ببلل الإثم إذا وقع على أطرافها هي التي تشق طريقها بينهن كما يشق الفاتحون طرقات مدينةٍ سقطت. هذه الأشكال الملونة المتراصة من الذنوب الشاردة، هي التي تفتح نافذة يقيني أحياناً، وتحمل النساء على الاقتناع بي، وبكتفي، وإصبعي الممتدة نحوهن ليسترحن. من الفاعلية أحياناً أن يكون ضميري مثل هاتفٍ لا يرن، ولكنه ما يزال موصولاً بالحرارة الإلهية، هذا درسٌ أولُ في سلوك الثلاثين، وأحد منحنياته الاضطرارية في الروح، وفي الجسد!

تماماً كما تفعل صوفيا، وكما أساعدها أنا بكل شهامة المصير الأحادي المرتقب من الغياب، يوم تدخل هي في ثقب الموت، وأعود أنا إلى أحد ثقوبي، وبيننا اشتباكاتٌ في البرزخ كنا نريد أن نضيئها معاً بضوءٍ مكتوم، قصير، فكلانا يؤمن بأن المجد للأشياء القصيرة، وأن الشهاب المارق بضوئه يغرينا أكثر من الشمس القابعة فوقنا منذ الصباح!

أعرفُ الآن أنها تعذبت طويلاً، وأرهقها المرض الكبير، وأطفاله من الوهن، ومن الألم، والانطفاء، وهم يركضون في عروقها منذ سنوات، ويخربون كل التنسيق الذي شكّله الله في الداخل، ويذرون خلف جمالها البسيط دماراً كبيراً ينذر بالخواء، وتبقى رئةٌ لا تلتقط الهواء جيداً، وقلب يكاد يتأفف مرتين بعد كل نبضة، وعضلات تتكاسل عن عملها، وتشكك في جدواه.

يوم الحادي عشر من أكتوبر ذاك أصبح مطبوعاً في تذكرتي

الخرساء، وتحوّل إلى لوحة طريق صامتة، تشير إلى بيروت، وصوفيا التي قررت بخشوع ألا تموت عذراء، ودونته في إحدى أوراق الأمنيات، بخطوط تحتها، كأنها أمنية إجبارية، تملك صنعها، وليست كباقي الأمنيات، قالت لي:

- لن يأخذه الموت، ولو . . .

- ولو ماذا؟

- ولو نلته بيدي!

وجرَّت وراءها ضحكةً طليقةً عذبة. كان هاتفي يحمل شيئاً من عسل لهجتها، يغرقني في لزوجة طيبة، وأصغي إلى ريقها الذي يتكثف في فمها وهي تتكلم، فتغرق بعض الكلمات، وتخرج البقية مبتلة تماماً!

قالت أيضاً بعد أن تأكدت من مجيئي:

- أحتاج إلى جسمك شعرةً شعرةً. لا أبالي بالجارين العجوزين للذين يتكلمان عن كل شيء، ولا بأهل البناية كلهم، لا يبالي الموتى ثرثرة الأحياء يا حبيبي، لا تبالِ بهم أنت أيضاً. نحن المسيحيين لا نقذف النساء بالكلام، كما لا نقذفهم بالحجارة، ثم إني سأموت، وأنت سترحل، ولتغرق الدنيا بعدنا في البحر!

كان الملل ثاقباً جداً، وأنا ما زلتُ حزيناً نسبياً لخوائي المتزايد، ولكن أحزاني تخرج من صدري على الأقل، ولا تبقى تحوم فيه كالخفافيش. هذه المرة لا قيود، لا مصير، لن أربِّي أي طفلٍ عاق في داخلي، كل شيءٍ سيخرج مثلما كانت حياتي من قبل، سيبقى الباب

مفضياً إلى الشارع، والنافذة مشرعة إلى الله، ولتكنسني مقشة الذنوب، وليغسلني ماء الإثم، وليرتِّلني الصدى الغجري في فم صوفيا.

برغم أني أزورها للمرة العاشرة على الأقل، إلا أني شعرتُ بأن بيروت كلها تستقبلني هذه المرة بوفدٍ شديد الامتنان لحضوري العبثي من أجل إحدى فتياتها، شارعاً فشارعاً استبدلتُ ثوب جفافي واغتسلتُ بالعبق النافذ من كلمات الناس، ولون الأفق، وخصلات الماضي التي تتدلى على جبين المدينة، هذه المرة أنا في مهمة كونية، أنفذها لأول مرة، ثمة ملاك يريد أن يموت كبقية الملائكة، ولا بد من برق!

ورغم ذلك، كنتُ أتناسى فكرة الموت، ولا أصدق نبوءات الطب أصلاً، بينما أقبل على امرأةٍ متعبة جسدياً، ومهتزة نفسياً، تريد أن تكسر كل الجرار على أرضيةٍ جديدة، حيث يلومها أحد، أنا أرضية، أو أنا جرة، أو ربما أنا هو «اللا أحد» الذي تريده ألا يلومها!

من المطار إلى صوفيا، طريقٌ أقصر من نقطتين، لأن صوفيا وبيروت كانتا نقطةً واحدة! وعند باب شقتها عانقتني رائحة القمر، وفي وجهها شيءٌ من التراب الكوني الحزين، يتساقط مع هجير طويل، وتبتسم لي وهي تراني لأول مرة، ثم تُطرق في خجلٍ، وتخرج من فمها كلمات ترحيبٍ مبعثرة، وتدعوني إلى الدخول، ثم تدور بي في المكان، وتمد يدها بارتباك واضح لتأخذ بيدي.

كانت الخطوة في تلك الشقة لها شكل المشي فوق غيمة، كل

الأرضيات مفروشة بشكل مضاعف أحياناً، ما يجعلها غضة، ولا يبرر هذا إلا نوبات الإغماء المفاجئة التي تنتابها مؤخراً، وهي تخاف على نفسها من سقوطٍ يعجِّل من انحدارها المتسارع نحو النهاية، أو ربما كانت تتجنب ندبةً أخيرةً لا معنى لها، في وجهها البريء ذاك.

عند العتبة قبلتني على خدي، فقبلتها على جبينها. عطرها كثيفٌ جداً، لاحظتُ أيضاً أن أثر بلله ما زال واضحاً كنقطة كبيرة على طرف قميصها إزاء العنق، كأنما رشته قبل دخولي مباشرة، لاحظتُ أشياء كثيرة في اللحظات الأولى، لأن نفسي القلقة كانت تحاول تجميع أكبر قدر من المعلومات حول المكان الجديد، والمرأة الجديدة. كنتُ قلقاً، ولا يواري قلقي إلا إثارة دخولي الأول إلى الشقة، ولكن لماذا أنا قلق؟ لم أفسر شكل قلقي بدقة آنذاك، ولكن فعلتُ مؤخراً. بعد شهرين فهمتُ أن الأمر كان مبرراً جداً، لم أكن أدخل شقة، كنتُ أدخل ضريحاً!

(٥)

- عندما ماتت أمي وأنا صغيرة كانت جدتي تقول «أمك ذهبت إلى حفلة؟»، وكنت أرد بذهول «ولكنها ماتت!!»، فتحتضنني تحت السلم الذي انزويت أبكي فيه وتقول «لا يا صغيرتي، لقد دعاها الله فوق، وسيقيم لها حفلة مثل كل الطيبين، ألم تكن أمكِ طيبة؟».

وتصمتُ صوفيا قليلاً، ثم تُردفُ بنبرةٍ كسيرة:

- كانت أمي طيبة فعلاً يا معتز.

وتنهدت، واتجهت عيناها نحو التلفاز، واحدةً تلو الأخرى، وتابعت كلامها:

- أطيب نعجةٍ في الدنيا!

ثم تستعيدُ نظرتها التي شردت بعيداً في الألوان المتراكمة على الشاشة الصامتة، وتلقيها عليَّ، وتداعب بيدها سالفي في سهوم:

- أمي ستكون هناك، فوق، وكل نعاج العائلة الذين ذبحتهم الحرب بلا سبب، أو انساقوا وادعين إلى حيث يرتفعون، مثلي. أنا أؤمن بكلامي، ولا أروج بياناً ختامياً بائساً، ولا حتى أسرِّب ابتهالاً خفياً إلى الله. لقد عشتُ طويلاً كما خلقني، وتأذيتُ حتى من كيفية

خلقه لي، ولكني واثقة من أنه سيعتذر جيداً عندما أذهب إليه.

لم أحاول تبديل نظرتي حتى لا تبدو اعترافاً مبطناً بارتكاب الإشفاق، ولكني أقسم إني تمنيتُ أن تكون عند صوفيا حكاية أخرى غير حكايات الحرب. كل اللبنانيين عندهم حكايات مع الحرب، يا للرتابة! إنها تبدو مريضة، لم يعد عندي شك في ذلك، رأيتُ التقرير، ونوبات الألم، ولكنها تصدق أنها ستموت، وعليّ ألا أشفق عليها بشكل ظاهر. سعيتُ إلى تثبيتها كما هي قبل أن تتكلم، الجمود أفضل من زلة شفقة سيئة تفسد كل الكلام.

رحتُ أتأملها بعينين متهاديتين، وهي تستكمل حديثها بانفعالٍ طفيف:

- ربنا عندو ذوق، وعقله كبير!

كنا نجلسُ على أريكةٍ كبيرة، ووجهانا جهة البحر الذي يشيِّع الشمس نحو الشفق الأخير، ويدبُّ على شاطئه السائرون، فرادى وجماعات، وبائعو الذرة والقهوة. بيننا صحن كرز، وكلمات صوفيا المتثالة النشيطة. لم يكن يبدو عليها خور المرض، لولا بعض الارتعاشات العصبية التي تغشى ملامحها فجأةً إذا وخزها الألم في أماكن متفرقة من جسدها، غالباً في جنبها الأيسر، فتسكتُ قليلاً، وتبتلع آهتها، وتخنقها في حنجرتها، حتى لا تقلقني، وتُطرِقُ مثل فنجانٍ مكسور، ما زالت شظاياه تتأرجح على الأرض.

أحياناً كنتُ أشكُّ في حقيقة تلك الآلام المفاجئة، بل إنني ظننتُ مرات أني لم أكن مقتنعاً بها مطلقاً، مثلما لم أكن مقتنعاً بقصة

مرضها كلها في البداية، ولولا الأوراق الكثيرة التي وجدتها في شقتها، وتلك الأدوية، والمسكنات التي تزدردها كل ساعات، لبقيتُ على عبثي الأول، أبادلها التزييف بإتقان!

كانت ترتدي قميصاً سكرياً لامعاً، وتلف على عنقها شالاً قصيراً أميَلَ إلى الاخضرار يجعلها تبدو مثل ضفة بحيرة، وكان بنطالها فضفاضاً يضيق في الأعلى، وتفوح منها رائحة عطرٍ يختلط بنسيم البحر الآتي من الشرفة المفتوحة، برغم البرودة المتزايدة، وقد غابت الشمس تماماً، وبدأتُ ألتقطُ ليل بيروت في هذه الشقة الرائعة.

كل يومٍ ترتدي صوفيا ملابس أنيقة تليق بالخروج، برغم أننا لا نخرج! لأنها لا تستطيع أن تخرج إلى مكانٍ تختلط فيه أنفاس الناس كما تقول، ولا تأمن على نفسها نوبة ألم ما، وفي قرارة نفسها كانت تخاف أن يداخلني الملل في الشقة، لهذا كانت صوفيا تستبدل ملابسها أكثر من مرة، وتجلس معي بلباس السهرة في الليل مثلاً، ولباس النهار، وذلك الفستان الفضفاض، وقبعة الريش صباحاً!

أنا مسترخ جداً، لا يهمني أن أخرج من الشقة أو لا أخرج ما دامت بيروت محتشدة على بعد شرفتها الواسعة. لقد أتقنت صوفيا اختصار بيروت في اختيار شقتها، وألا أخرج كان يتيح لي مراقبة كل تصرفاتها على مدى الليل والنهار، وإثبات أنها غريبة الأطوار أحياناً، وأجد مبرراتها لذلك بسهولة.

من يمكن أن يعلّق ورقةً كتلك فوق سريره ويبقى طبيعياً! هذا أول مبرر...

لأول مرةٍ تُستأجر الشقق للموت، وليس للعيش كما يفعل البشر! هنا قرَّرَت صوفيا أن تجتمع بأيامها الأخيرة على طاولة الفرح المسروق الموقت، وتنتظر القادم المهيب الذي بشرها به التقرير الطبي البارد، وحتى ذلك الحين، ستفتح شباكها هنا، وتشم البحر هنا، وتسمع حبيبتها فيروز هنا، وتمارس الجنس هنا، وتحتضن ما تيسر لها من بيروت، من شرفة الطابق العالية تلك . . .

سألتها بعد أن سمعتُ قصة الشقة :

– لماذا لم تختاري مدينة أخرى ما دام عندك مال؟ جنيف مثلاً، باريس؟ فيينا؟

– حقاً؟ هل تعتقد أنه من الشهيّ أن أنتهي هناك؟ لقد عشتُ عمري هنا؟

– ربما تلتقطين طرف حياةٍ أخرى، لم يصبح الموت حتمياً بعد.

كنتُ ألفظ كلمة الموت بعفويةٍ مصطنعة، محاولاً أن أجاري بها عفويتها الطبيعية عندما تقوله هي، مؤجلاً كل تعابير الخجل، أو الضحك أحياناً! للَّحظة التي تغيب فيها في المطبخ، أو الغرفة المجاورة، أو تلقي أوامرها على الممرضة الخادمة أيضاً، والتي تسكن معنا في غرفة منعزلة من الشقة.

ردَّت صوفيا عليَّ وهي تشعل شمعتين :

– لا يا عزيزي، في حياتي كلها لم أغادر لبنان أبداً.

تراقَصَ لهب الشمعة على زجاج نظارتها، وأردفت بعد ابتسامةٍ تعيسة :

– موت بيروت مختلف، لا توجد ملائكة في الدنيا تؤدي أعمالها مثل ملائكة بيروت!

ضحكتُ ببطء متعمد، وهمستُ لها :

– الملائكة في كل مكان . . .

كانت منحنية، تبحث عن بذرة كرزٍ سقطت في الأرض عندما نطقت عبارتي، فرفعت لي رأسها بشكل منحنٍ، ما جعل شعرها يندفع نحو الأسفل، ونظرت إلي نظرةً علويةً فيها شيءٌ من دهشة، ثم ضحكت ضحكة قصيرة جداً، وقالت :

– على فكرة، أنتم المسلمون لكم شؤون غريبة أحياناً!

– لماذا؟!

– تقدِّسون كل شيء! الأنبياء، الملائكة، العلماء، الكتب، الأماكن . . .

– حقاً؟

– أجل، كل شيء حولكم حارقٌ، مؤذ، لا يجوز لمسه والاقتراب منه، ولا التطرق إليه إلا في أضيق الحدود!

ابتسمتُ لرأيها، وسألتها :

– وأنتِ صوفيا؟

سكتت قليلاً، بدا لي أنها تستجمعُ إجاباتٍ حاضرةً في ذهنها،

ولكنها لم تنتظم من قبل في كلام، ولذلك راحت صوفيا تفكر، بينما تحاول أن تجمع شعرها أيضاً، وتربطه بمشبكٍ صغير، فبدت لي رقبتها شاسعة البياض، ووجهها جميلاً جداً من تلك الزاوية التي أنظر إليها منها، وتفكر هي فيها...

قالت بعد برهة:

- عندما أموت، ستقطع الملائكة مسافة هائلة من فوق إلى هنا لاصطحابي معها، أنا أهم منها إذاً، لأن الله يكلفها بهذه الرحلة الطويلة من أجلي. أحترمها، ولكن لا أقدسها.

- وما الفرق؟

- الفرق أني لن أتردد في الحزم إذا استلزم الأمر، وتأنيبها إذا لم أمت بشكل جميل. ربما أمتنع عن الذهاب معها!

- ستشكوكِ إلى الله!

غمزت بعينها. ابتسمت وهي ترد:

- وسأشكوها إليه، لا تقلق...

دائماً ما ظلّ كلامنا عابثاً هكذا، نتبادل العبارات غير الموجهة كما يتقاذف طفلان الوسائد، ولكننا نحترم سياق الحديث، وفي جلسة أخرى ربما نخلع هذا الاحترام، ونعيد تمزيق الحديث نفسه، ونسخر من بعضنا، ونعترف بأكاذيبنا!

ولكني الآن أكمل حديثي معها كما تتطلبه صيغته وظروفه، فرفعتُ حاجبيّ بدهشةٍ مصطنعة لنرجسيتها الطفولية أيضاً، وبدا لي أنها

اكتشفت ذلك، ولكنها تابعت كلامها وهي تعبثُ بيدها في طرف قميصي:

- شوف، ما فينا نمثّل على ألله! بنكون زي ما بنكون، هو خلقنا، وهو بيعرفنا أكتر منّا، ما فينا نقول إنا بنحبه ونحنا ما بنحبه! ما فينا نقول نحنا مؤمنين ونحنا منّا مؤمنين، بنكون زي ما بنكون، وهوه بيتصرف!

كان وجهي يقطّبُ مثل فلكيٍّ عجوز وأنا أراقب كلامها، وعلى الغلاف الداخلي لوجهي كانت ابتسامةٌ كبيرةٌ تملأ المكان، لا تراها صوفيا، ولا يمكنني طرحها على طاولة النقاش، لأنها لا تعني شيئاً مفهوماً أبداً!

مثقفة هي صوفيا إذاً، وتستطيع أن تفلسف بعض الأشياء! هذه فتاةٌ على مقاس الحب وذوقه، لو أنني أمارس هذه العادة القلبية السيئة، ولكنه الملل، هائجٌ منذ زمن، والظروف غير مؤاتية!

حتى جسدها كان مثقفاً، برغم أنها زعمت طويلاً أنها لم تنم مع رجل قبلي، وتبرهن على ذلك بعذريتها، ولم تكن العذرية تثبتُ لي أي شيء، فمنذ سؤدة الليل الأول، حوت ذراعاي جسدها الذي أنحله المرض، واعتليتُ صهوة الرغبات الأصيلة، وارتعشت الفتاة بين يديَّ طويلاً، وتألمت أكثر، ورأيتُ كيف تصارَعَ في عينيها فارس الموت، وفارس الحياة، وتلوَّن وجهها مثل فانوسٍ مجنون، والتصقت بي مثل سمكةٍ جائعة، ولم تعد صوفيا عذراء، لم تعد عذراء أبداً. تحققت الأمنية الغليظة تلك، وسقطت ورقةٌ من أوراق التقويم المشحونة

بالأمنيات، وسقطت صوفيا على صدري عاريةً مثل شالٍ من الحرير الأبيض المجروح، وراحت في إغماءةٍ صغيرة.

بقايا التوهج الأنثوي المتراكم فوق عذرية طويلة، نزفتها صوفيا كلها على جسدي. وبرغم أنها لم تكن أول مرة أكسر أنثى إلى هذا الحد، إلا أني كنتُ أراقب ملامحها بدقة، وأتأملها وهي تدركُ لأول مرةٍ معنى أن يُصبح نصف جسمها الأسفل غير مقيدٍ بقوانين نصفه الأعلى، إن هذا يجعلها تختبرُ نشوةً لم يتنبّأ بها سريرها الواسع الذي تلمسُ أطرافه سيقان النبتات المتسلقة. ثمة شيفرة جديدة للمشي الآن، بدون أسرار!

السنوات التي مضت بين ليلتي القديمة مع زوجتي، وليلتي الأولى مع صوفيا، جدّدت عليّ غرابة الموقف، وأثره الضبابي الغريب. تخيلتُ لوهلة أن صوفيا شرنقة مغلقة، تخيلتُ أني أفتحُ لها فرجةً تتحولُ منها إلى أنثى مكتملة الأجنحة، أنثى تأخرت كثيراً قبل أن تصعد إلى كمال كينونتها، وتمام وجودها. شعرتُ بأني أعدتُ تنصيبها ملكةً على نفسها، مالكةً زمام أنوثتها، تعيد تنظيم هرمونها الجائع، وكيميائها التي ظلت طويلاً محتاجة، وغير مكتملة!

رحتُ أدخن سيجارتي في السرير مثل أبطال الأفلام القديمة، وصوفيا تسحب شفتيها على مناطق متفرقة من صدري مثل حلزون كسول. أطلقتُ نفاثة الدخان الثالثة، فانداحت وراء سابقاتها في فضاء الغرفة، ونامت صوفيا على ما يبدو، وراح خيطٌ طفيفٌ من لعابها الجميل يسيل على صدري. أطفأت سيجارتي في منتصفها حتى لا يؤذيها الدخان وهي نائمة، ورحتُ أراقب خيوطه الهاربة.

امرأةٌ أخرى تنام على هذا الصدر المكتوم! مشهدٌ رتيب حقاً، لولا ممحاة النسيان الضخمة! «هل تدركُ هذا يا معتز!». هل تُراي أدركتُ أن النسيان يساعدني على إعادة التمتع بالأشياء الرتيبة المتكررة في حياتي؟ النسيان حيوانٌ مفيد جداً لو أني أستطيعُ تدجينه!

من النِّعَم أن تكون ذاكرتي وَحْلِيةً أميَلَ إلى السيولة! تبقى فيها الأشياء طافيةً فترة عابرة، ثم تغطس، وتختفي، ولا تعود إلى السطح أبداً، إلا في ظروفٍ عاصفة! أتخيّل لو أن ذاكرتي صخرية مثلاً، يبقى النقش فيها أعواماً بالوضوح نفسه، فهل كنت سأتحمل نقوشاً أخرى؟

كانت صوفيا على صدري! تُلصقُ أذنها بأضلاعي وكأنها تصغي إلى ثرثرة نساءٍ مدفوناتٍ في القاع البعيد منه. لا يهمها إلا أصوات النساء، إنها الأكثر خفوتاً في حياتي على كل حال. لم أجد في حياتي وقتاً كافياً لامرأة! إن مسلسل التعالق بين رجل وامرأة معاد ومكرر، بوادر الميل، ثم وشائج التعلق، ثم سلوكيات الاقتراب، ثم انفعال التواصل، كان يكفي أن أجربها مرتين على الأكثر لتتشربها نفسي، فلا أتوق إلى معاودة التجربة، ولا يختلفن النساء كثيراً ليغرينني.

صوفيا في حالة نادرة تختلف عندما تكون عذراء ثم تتحول أمامي إلى غير ذلك! وتسألني أنا كيف أشعر، وكأني أنا الذي فقدتُ عذريتي وليست هي، قالت لتعدل من دهشتي:

- كيف تشعر بي أنا، المرأة نفسها؟

- وماذا يتغير؟

تصمتُ، وفي فمها ابتسامةٌ غامضة، تريد أن تتأكد من أنها لم

تكن سباقاً وانتهى، أو حلوىً واستُهلكت. لم يكن عندي هذا الشعور فعلاً، برغم أننا كشرقيين نعتدُّ بالأشياء المغلقة: بيوتنا مغلقة، وثقافتنا مغلقة، وحتى النساء يكنَّ أجمل وهن مغلقات بالعذرية!

وصوفيا تختلف عندما تقول «بنكون زي ما بنكون»، ولا شيء أكثر جلاءً من أيامها الفانية هذه، فكرتُ كيف أخلت مسؤوليتها أمام إلهها بعبارة واحدة ثم نامت فوقي! كأنها تخاطبه بلغتي...

أنت الذي صنعت هذا الطوق الممل يا الله، وأنت الذي تركته ينكسر، وأنت الذي أردت لها أن تموت، وجلبتني إليها بأقدارٍ أخرى!

أنت الذي صنعت الموقف، وأضجعت الجسدين متجاورين في الهزيع الأخير من بيروت...

أنت خلقتني، وخلقت صوفيا...

(٦)

عندما تتكلم، يتشكل كلامها مثل قالب طين، نسخة متطابقة مع ذاتها، ولكن مموهة التفاصيل، لهذا بدأ يأخذ منحنيات شيقة، بعيدة عن رتابة الوضوح. الطين يكون هيناً، ويكون أصناماً، وكلامها كذلك. سردت عليَّ قصصاً أغرب ما فيها أنها تطوي الألم والفرح معاً، وكيف أنهما يجيئان أحياناً ممتزجين ببعضهما بشكل غريب، كطفلين سياميين!

غريبةً كانت قصصها، وتلك الطفولة الناشئة في فوهة حرب. وغريبٌ أكثر وأكثر أن تعترف لي بعد ذلك بأيام قليلة، بأنها كانت تكذب! لم أعرف أي الأمرين أرجح، وأيهما يغلبُ عليه الصدق، هل لأن حكاياتها كانت تبدو لي متقنة، أم لأنها عندما اعترفت كانت دائخة بدواء ثقيل، وفي ليلة أقرب فيها إلى الوهن؟ أم أنها رأتني مشدوداً إلى ما تقول، حتى بدأت أكتب بعض ذلك، فخافت أن تترك فيَّ الحياة من بعدها زيفاً ما!

وأنا لا أعرف الكثير من الكتابة، ولست معتاداً عليها، ولكني أصرُّ على رصد صوفيا في أوراق، لأني شعرتُ بأنها شهابٌ مغبونٌ

جداً في طرف السماء، لم ينتبه أحدٌ إلى احتراقه، والقلة الذين انتبهو، لن يعلقوه في الذاكرة طويلاً. اصطياد الشهب شيءٌ مغر!

في وقتٍ آخر سألتها إن كانت فعلاً تكذب، ابتسمت ولم تجب، ولم ألح عليها. إن مثلها لا يفهم مشاعره أحد، ولا القرارات الصغيرة التي تتخذها قبل أن تتكلم كلاماً، وترسم ظلاً، وتنسج حكايةً خيالية، أو أخرى من نسغ الحقيقة. حتى الآن لا أدري، وحتى الآن لا أكاد أشعر بضرورة أن أدري! مؤلمٌ أن يكون ما قالته حقيقياً، ومؤلمٌ أيضاً أن تضطرب إلى الحد الذي يجعلها تختلق لنفسها ألماً كهذا.

قالت إن عائلتها الصغيرة أصلاً اختزلتها الحرب، ولم يبق من يمكن أن تتكئ عليه بيفاعها وسط بلد مليء بأنقاض الشوارع، وأنقاض النفوس، فكل شيء خلفته الحرب كان حاداً، ومستعداً لأن يجرح، وينهش، ويمارس حرباً صغيرة بعد الحرب، من أجل البقاء، أو من أجل تعديل مزاجه المتعب!

- والله تعذبنا كتير!

- الحروب أمهات المآسي دائماً...

- بتعرف! كان بيني مرة وبين شخص مات برصاصة مترين مش أكتر، لو كنت أنا متّ مين كان سأل عني!!

- ربك...

- وليش كل هالتعتير!

نطقت عبارتها الأخيرة بشكل حاد، ونبرة أعلى، فلزمتُ الصمت!

دائماً الله طرف في مشاكلها، محيرة هي أقداره بالنسبة إليها، برغم أنها عندما تتعلق بالوطن تبدو مألوفة، هي التي تعودت أن عدد الناس غداً، أقل منهم اليوم، دائماً، لأن النظريات هنا نظريات الحرب، وهي عاشت ثلاثة أرباع حياتها في الحرب تماماً، إما أنها امتلأت بالوجع حتى فاضت، أو شُحنت بالحكايات من حولها حتى ظنت أنها وقعت لها شخصياً!

وأمام التساؤلات الموجهة نحو القدرة الإلهية كنتُ أنسحبُ دائماً. لقد أدركتُ منذ طفولتي أن الله صامت، صامتٌ جداً، وكنتُ مام خيار أن أجعله ضمن الصامتين الذين أبغضهم، أو أن أتخيل له طريقة مختلفة في الكلام. وهذا الخيار الأخير كان محرضاً جداً، أن صبح كل الأحداث التي تحدث أمامي كلمات إلهية، أنا أشعر بها، أسمعها جيداً لأنها حدثت. الله لا يصمت أبداً، ولكنه لا يتكلم ولا يجيب بالطريقة المعتادة. إن الله عظيم إذاً لأنه غير رتيب، هذا يتفق معي جداً، وأنا أحبه لذلك.

وصوفيا تجمح بأسئلتها نحوه من دون تراجع، كأن مرضها يجعلها تشعر بأنه صار الطرف الذي ينبغي له ألا يتمادى، ومن حقها ن تعاتبه كل يوم، وكأني أنا وقفتُ بينهما حكماً أراقب أقداره عليها، وأسمع عتابها له، ثم أحاول أن أجد حلولاً ترضي الطرفين، وأطلق هذه الحلول بصيغة محايدة لاختلاف ديانتينا، ولم أكن أفلح دائماً.

قلتُ لها إني أشعر بأني ضئيلٌ جداً إزاء معاناتها، لأني عشتُ حياة مترفة، ربما هذا سببٌ جعلها تشفق عليَّ من الشعور بالضآلة،

برغم أني لم أشعر بذلك إطلاقاً، بل أجاريها فقط، فلم تزد على أن قالت وهي تستخدم نبرة تدليل كبيرة، وتقبض بسبابتها وإبهامها على شفتي السفلى:

- أصلاً مين حكالك إنو بدي حِب واحد مشحّر! كفانا مشحّرين، بالعكس، بدي هيك ابن نعمة، وعايش على ريش نعام.

وتتداخل ضحكتها مع أزيز القبلة وهي تزرعها على عنقي، وأنا أفكر بصعوبة في الذي يمكن أن يجعل لمترف مثلي بالنسبة إليها جاذبية ما؟ إنني بالذات أجد دائماً في ترفي الصغير الذي صنعته لي أسرتي عيباً ثابتاً في شخصيتي، ونقصاً شاخصاً لا يجعل عندي حكاياتٍ أنيقة عن التعب، والكدح، كتلك التي تتزيّن بها صوفيا الآن، أو تختلقها.

أم يريد المترفون أن يستأثروا حتى بحكايات الكادحين؟ كأنما يجعلهم عجزهم عن تحصيلها أحياناً مشحونين بشعور غريب من الضيق، والتفاهة، وخواء النفس؟ وتكون صوفيا مجرد مترفة أخرى بمقاييس الحرب، ولكن فاض بها الأمر قليلاً، واختل عندها ميزان ما يمكن أن تشكر مجيئه، وما يمكن أن تحمد انصرافه، تحت وطأة حالة تطفف الموازين كثيراً؟

عندما يصبح البؤس أناقة، كم هذا غريب!

وغريبةٌ شقة صوفيا أيضاً، تشعلُ فيّ تساؤلاتٍ مختلفة كل يوم، ولم يكن عقلي يعمل هكذا، لقد مرّرت فيّ تيارات تجعل مشاعري تغير أماكنها في المحاريب القديمة، وحملت لي رقصاتٍ جديدة من

الإرهاق، والصداع الطيب، وذلك الإحساس العميق بالتأرجح في إنسانيةٍ متفاوتة في معاييرها حقاً.

كانت تشير بيدها من النافذة المخالفة لاتجاه البحر إلى مجموعة من البنايات البعيدة ونحن واقفان في الشرفة. أنظر بصعوبة، ولا أوفق أبداً في رؤية بداية بيروت الشرقية، حيث سكنت عائلة صوفيا أثناء الحرب، وجعل والدها جزءاً من واجهة المبنى من الزجاج المعشق كما قالت، يحمل النور متوجاً بألوان مختلفة إلى ردهة واسعة في وسط المنزل، فتتوزع على أرضية من رخام إيطالي ثمين. كانت تلك الجلسة الجميلة مفخرة صغيرة لهم بين الأقارب والأصدقاء، قبل أن تتحول بعد سنتين فقط إلى نيشان كبير! وتمطرهم بنيران القناصة، ونواظيرهم المسلطة على بيروت الشرقية، وبيت صوفيا في الصف الأول منها. كان على عائلتها أن تعيش في بيت نصف مكشوف أمام النيران، بعد أن تحطمت الواجهة الزجاجية الكبيرة منذ الأيام الأولى لاندلاع الحرب.

انقسم البيت إلى نصفين، تصل بينهما ردهة مكشوفة، وكان العبور من طرف البيت إلى طرفه الآخر يتطلب مغامرةً جسورة للمرور عبر ردهة تحولت إلى تسلية للقناصة الذين ينامون على بنادقهم، ويشحنون أحلامهم برائحة الموت، والأشكال العشوائية التي يرسمها الدم على جدار، أو شارع.

عندما تتكئ طوال اليوم على مدفع رشاش، والهدوء قاتل، والناس يلتزمون البيوت، ربما أتخيل حالة قناص كهذا، وكيف تستثيره

إلى أقصى حد الأشياء المتحركة، حتى لو كانت قطةً أو كلباً، فيداعبه بطلقاته!

كان والدها هو الذي يتحمل تبعة العبور الجريء كل مرة بين طرفي الشقة، متدرّعاً بباب خزانة الملابس، يحمله بصعوبة، ويركض نحو الطرف الآخر، حاملاً علبة حليب، أو بعض الطعام، ويعود مرة أخرى وبضع رصاصات طائشة تئز بجواره، حتى بدأ عبوره المتكرر هذا يثير حنق القناصة، وباب الخزانة التي تمنعهم من تحديد مكان جسده بالتحديد وراءها كان يحميه فعلاً من دقتهم المتناهية في تمرير الموت.

بعد يومين، ربصوا له بمدفع من العيار الثقيل، مزقوه تماماً هو وجدارين آخرين سقطا معه، لتصبح المساحة المكشوفة من المنزل تعادل ثلاثة أرباعه، ويبقى الربع الأخير، غرفتان، وممر ضيق، هو كل المساحة المتاحة للعيش، في المنزل الذي فقد عائله.

قالت صوفيا:

- لم أكن في البيت يومها، لسبب لا أذكره تحديداً، كنتُ في بيت جدتي، وعندما عدتُ لم أجد أبي، ولا أمي!

- أين ذهبت؟

- جن جنونها عندما رأت أشلاء أبي تتناثر في كل مكان، فحملت مسدسه، وخرجت من البيت، واتجهت إلى المبنى الذي انطلقت منه القذيفة، ولم تعد مطلقاً.

هذه القصة قصّتها لي صوفيا مرة واحدة، فلم أستطع أن أقارنها

بمرة سابقة لأكتشف الثغرات، وأتنبأ بحقيقة القصة أو زيفها. في كل الأحوال لم يكن عندي شك في أن صوفيا رأت الكثير من الرصاص في حياتها، كل من عاش في بيروت عاش طفولة مشبعة بالبارود، هذا إما أن يجعلها تكشف عن صدق، أو تتقن الكذب!

هل كان طيباً أن أجلس مع امرأة لها رائحة البارود؟ أشمه في صدرها، وإبطها، وفي ثنايا القصص؟ وأسمع في جسمها أصداء القذائف والقنابل، كما نسمع أصداء الموج في الأصداف الكبيرة عندما نضعها حذو آذاننا؟

لأنها كانت وادعةً بين يديّ، كنتُ أشعرُ بنشوةٍ كبيرة عندما أضمها بعد ذلك، وعندما أنام معها تحت موسيقى الحرب، وذاكرتها المسطّرة بأصوات الرصاص. فهل كان من المفيد لرجولتي أن أستمتع باستسلامها لي، هي التي لم تستسلم لذكورة الحرب الطويلة تلك؟!

لماذا هي وادعةٌ إلى هذا الحد! إن المقاتل يكون في ذروة شراسته عندما يقترب من الخطر أكثر، من الموت!

كثيراً ما حدقتُ في عينيها وهي تتكلم، كنتُ أحاول فعلاً أن اقرأ أفكارها، أن أفهم كيف يمكن أن تكون عليه سيكولوجية فتاة تؤمنُ أن جسدها يخرب تدريجياً، وستموت به قريباً. كنتُ أتساءلُ كيف لا تنزوي هذه الفتاة، وتنهار، وتقضي أياماً وهي تبكي في حجرة مغلقة، وظلام دامس؟ كيف تراها تجلس إلى جواري، ساقاً حذو ساق، ويداً خلف عنق، وتتكلم وكأنها تنتظر حياةً مديدة، مليئة بالرزق، والرغد، والأطفال، والسفر، والأحلام!

ولماذا أنا الآن رجلٌ في حضن صوفيا، بعد أن ظل الرجل عنصراً غائباً تماماً في حكاياتها، ولم يكن صديقاً، ولا عاشقاً، كان مجرد متحرش طامع، أو دائن قاس، أو حتى أخ مهاجر لامبال، أو كان كما رأته في طفولتها جندياً مخيفاً، أو قناصاً قاتلاً، في حرب ذكورية جداً، تطحن تحتها المدينة الأنثى، بيروت، ونساءها. لماذا لم يكن هناك رجلٌ واحدٌ في أي حكاية! إن عمر صوفيا تسع وعشرون سنة، فهل مرت كلها من دون رجل؟

أما أنها استبعدت الرجال من حياتها، أو من حكاياتها، لا فرق الآن، ولكن شيئاً ما في رائحة علاقتنا يجعلني أشعر بأنه غاب فعلاً عن حياتها، ولم يتواجد قط، ولكن كيف؟ أين خبأت قلبها الشاب طويلاً من رجل ما؟ وكيف كبتت في داخلها جسدها الذي يعلق لها كل ليلة ورقة رغباته بجوار السرير، كي تتذكر!

والأقسى عليّ الآن، أنا الذي ظننت نفسي عابراً في حياتها التي تنتهي، أنني كنتُ أكثر من مجرد أمنية أخيرة تشتهيها كما يشتهي المشنوق شتاءً حبةَ عنب. كنتُ رخصةً فاصلةً تنقض هذا الصيام الطويل! وتلغي ذلك الحظر القائم حولها، وهذا جعلني أكثر ارتباكاً من صوفيا نفسها!

انتابتني رغبةٌ في إنكار هذه الحقيقة التي تدعيها، في محاولة لتخفيف احتقاني بمشاعر غامضة تجتاحني، وتؤلمني قليلاً! كل النساء يدعين هذا الصيام بين يدي رجل، وكل الرجال يقتنعون بهذه الخدعة، كي لا يفقدوا متعة الغازي الأول الوهمية!

أجل، هكذا صوفيا تملأني أسئلة، أسئلة تحوم في عقلي ولا أطلقها أبداً، ولو أطلقتها وأجابت عنها صوفيا لذهبت لذة الحيرة والتساؤلات! إن معرفة السبب طريق إلى سكون العقل، أجمل ما يجذبني نحو صوفيا أن أشياء كثيرة في حياتها ظلت حتى الآن من دون سبب!

ألا تتزوج حتى الآن، لا يوجد سبب؛ أن تنعم على رجل غريب من دون غيره كل هذه النعم المخملية، لا يوجد سبب؛ أن تتضادّ مع السماء إلى حدود متجاوزة برغم اقتراب لقائهما، لا يوجد سبب؛ أن تختلق قصصاً تعرفُ أنها لن تجذبني إليها أكثر، ولن تضفي عليها أي ألقٍ إضافي، لا يوجد سبب؛ أن تتكلم أحياناً بكلمات بذيئة جداً، مستخدمةً نبرة عصفور نبيل، لا يوجد سبب!

لا يوجد سبب، إلا أن تكون اكتشفت شخصيتي النزاعة إلى المتغيرات، وراحت تلعب معي لعبةً خطيرة!

طالما قوّلتُ الأشياء غير ما تقول. من حق الآخرين دائماً أن يتكلموا عن أنفسهم، من حقي أنا أن أفهم كما أشاء! بكل هدوء الآن أستطيع أن أقول، هل كانت صوفيا أكثر من فتاة مشتاقة تبحثُ عن طقوسٍ آمنة لمتع لا تنتهي من الحب؟ وهل ثمة أفضل ممن يأتي من وراء الحدود ليقدم إليها ذلك بصمت، ومن دون مشاكل؟ وهل قصة المرض، والموت، والحكايات المغموسة في شجنها تلك أكثر من ترميم مصطنع لأنوثتها المتصدعة جراء جرأتها في طلب الحب بهذه الصيغة المباشرة!

أنا لا أعرفها، ولا أعرف كيف هي موازنتها الفلسفية الأخلاقية حول الروح والجسد، وأيهما يستحق أكثر، وأيهما يجب أن يوافق أولاً، ولكن كيفما كانت تفكر، لا يمكن لامرأة أن تزعم أنها تحبني من أول العتبات، إلا إذا كانت تسعى إلى أن تمهد طريقاً عاجلاً نحو جسدي.

لقد أدركتُ زيفها من الأيام الأولى، ولكن لا أريدها أن تتوقف عن صياغة الكذب. من المدهش حقاً مراقبة امرأةٍ تكذب، رغم أنهن يكذبن أكثر مما يفكرن أحياناً، ويكذبن من دون أن يشعرن! ولكن شفافيتهن التي جبلن عليها تجعل الكذبة لا تختمر طويلاً وراء جدار الكتمان، فتخرج سيئة الصياغة، وقطعاً غير مكتملة التنفيذ، وغير متشابهة، ومثيرة جداً!

واكتملت متعتي عندما صرتُ أشاركها في صناعة الكذبة التالية. كان يكفي أن ألمح إلى شيء أعرف أن صوفيا لا تحبذ أن أراه كما رأيته، ثم أنتظر قليلاً حتى تسعى إلى تحوير الفهم الذي أوحيت لها أني فهمته بحكاية مختلقة ما. عندما قلتُ لها مثلاً إنه لا يمكن أن أصدق وجود امرأةٍ في مجتمع حر تبلغ التاسعة والعشرين ولم يمسّها رجل، وكأني ألمح إلى أني لا أصدق حكايتها أني الرجل الأول، طأطأت صوفيا قليلاً، ثم اختلقت لي تلك القصص عن محاولات التحرش التي تملأ طفولتها، وجعلتها عازفة عن الرجال طوال هذا العمر!

كانت صوفيا تطلق كذبتها هكذا، بهذا الحد من السطحية

والسذاجة، ثم تسعى في ما بعد إلى ترميمها بهوامش إضافية، تُحكم بها خلق الكذبة التي ارتجلتها لظروف الكلام، أو لأسباب خبثي، وطبيعتي اللئيمة دائماً لمراقبة الأشياء وهي تتحول، وتتغير، ودفعها إلى ذلك أحياناً!

ولأن صوفيا ثرثارة بطبعها، كل يوم تدلق في سمعي شاحنة كلام كاملة، وأنا ألتقطه بمتعة، إن الكلام عالمٌ من المتغيرات الحرفية، والأصوات، والنغمات، والرنين، والأصداء الشفهية، لا يمكن إغفالها، والذاكرة البشرية إذا تهيّأ لها فمٌ ينكشها جيداً خرجت بأشياء مدهشة، وحكايات ممتعة، لا يهم صحتها أو زيفها، بقدر ما يهمني أن تأتيني بجديد ربما لم أسمعه من قبل، ولهذا كنتُ مستمعاً مثالياً جداً إلى صوفيا وهي تثرثر، وأسئلتي القليلة كانت تعيد توجيه لسانها لتوضيح ما لم يتضح، وطَرق ما لم تطرق لحياء أو نسيان.

وإذا افترضتُ أن الأكاذيب ليست من حياتها، فإن صوفيا تكون قد قصّت عليّ أكثر من حياتها. من الناجح جداً لشخص مثلي، اكتملت حالة إدمان المتحول لديه بعد الثلاثين، أن يتمتع بصحبة من يملك قدرة خلق ما هو أكثر من حياته، يملك حياةً ونصفاً، أو حياتين، أو حياتين وربعاً، المهم أنه يملك الجديد الذي اختزنه جيداً، وأطلق فيه عنان أفكاري لتركض مثل حصان. يقولون إن الأحصنة التي لا تركض، تموت!

لرجل آخر، قد لا يبدو وصفي لصوفيا مغرياً؛ امرأة عادية لدرجة أن تضطر إلى أن تكذب كي تملأ فراغاتها. الرجال يبحثون عن

امرأةٍ تم تقديرها مسبقاً في خيالاتهم. إن حياتهم العاطفية، إذا قُدر أن تكون لهم حياة عاطفية، هي إما سفرٌ لا ينتهي بحثاً عن امرأةٍ تشبه ما يريدون، أو نحتٌ متوالٍ على امرأةٍ حاضرة لجعلها كما يريدون. في آخر المطاف سيصلون إلى امرأة ثابتة، إما حقيقية، أو منحوتة، يا للملل!

صوفيا حالة متحولة، لأن الجزء الدماغي المسؤول عن الخلق والإبداع عندها يبدو واسعاً. إن صوفيا عندما تكذب، فإنها تبدع بالضرورة. الكذب إبداع ما ليس موجوداً، والصدق اتباعٌ لحقيقة موجودة. الصادقون أطهار، أنقياء، أي شيء، ولكنهم أكثر بلادة من الكاذبين، لا يمكن أن ننكر ذلك! إن صوفيا التي قد لا يراها غيري من الرجال امرأةً تستحق الاهتمام، تبدو عندي امرأةً عظيمة! امرأةً نهريةً لا يعنيني مجراها، المهم أنها لا تكف عن الجريان!

لا أتخيل أن أقضي حياتي سعياً وراء ثابت! مهما كان نفيساً وجليلاً، فالثبات بحد ذاته نسقٌ وضيع! لا يثبت إلا الشيء البليد، لا يركد إلا الماء الآسن، لا يستيقن إلا العقل الكسول. إن الله نفسه عندما أراد أن يكون إلهاً عظيماً لم يكن مستقراً على عرش فقط. إن الله سلسلة هائلة جداً من التغيرات الكونية المتعاقبة، متوالية حالات لانهائية عظيمة لا تقف، لا تستقر، لا تهدأ، ولا تثبت، ولو أنها ثبتت لتكسَّرَ الكون كله مثلما تتكسر آنية زجاج رديئة!

وصوفيا لا تكذب فحسب، إنها تعود لتمارس تعديلاً على كذبها السابق، وبكل بساطة، تقول لي «حسناً يا حبيبي، بصراحة كنت أكذب عليك! الأمر لم يكن كذلك، بل...»، ثم تسرد عليَّ قصةً معدّلة أو جديدة بالكلية، المهم أنها أكثر إحكاماً، وأكثر التصاقاً بالذاكرة، وأكثر تفهماً لحالة ذاكرتي أنا بالذات، التي لا تقبل بتكرار الأشياء. ولما لم أكن أبدي أي تأثر لتغير الحقيقة، فإن صوفيا اعتادت أن تمارس الكلام بأريحية أكثر. ربما شعرت بأني رجلٌ يحب أن يسمعها تتكلم، ويراها تتحرك؛ رجلٌ يهمه السلوك، ولا تعنيه الحقائق!

ربما بعد مئات الساعات من الكلام، أصبحت الحدود التي تحكم كلام البشر عادةً زائلة تماماً عند صوفيا. إننا عندما نتكلم مع شخص فإننا نسعى إلى إقامة بناءٍ صغير من كلامنا في منطقة يقينه حسب تصورنا، ومقاييسنا، وأهدافنا من الكلام. إننا ننتقي كلماتنا، ونصمم عباراتنا بحيث تخدم هدفاً بنائياً في تصوراته، لهذا اعتدنا أن يكون الكلام سلسلة هندسية محكومة بمعادلات ثابتة!

ببساطة، لم يعد كلامها كذلك! هي نجحت في التملص من هندسته، وأنا أوحيتُ إليها أن في داخلي منطقة ذات تربة متحولة لا يستقيم فيها بناء أصلاً، لقد سقطت كل الجدران. عرفت صوفيا أني لا يمكن أن ألومها على تمرير شيء مزيف، ولا على إطلاق خبر مزور، بل تستشعر فيَّ رائحة الرضى. إني أهنئها كلما جاء موسم كلامنا ملوّناً، ومليئاً بالغرائب، والأحاسيس الجديدة. صوفيا أصبحت آلة كلام مطلق، لا كلام محدود كبقية البشر. أصبحت تندفع كسيل لا يحدّه مجرى، ولا يردّه سدّ. أصبحت تمزج أحلامها، بآلامها، بواقعها، في وعاء فانتازي مبهر، وعاء من الأكاذيب!

(٧)

الصباح العشرون لي في المكان. شهدتُ استيقاظاً أليماً لصوفيا، فزعتُ من نومي على هذا الضجيج الذي تحدثه وحدها، غثيانٌ، وسعالٌ، وقيءٌ دمويّ، وشحوبٌ كبير. كانت تتعارك مع نفسها في الحمام ويأتيني الصوت، وأنا مذهولٌ في السرير، صامتٌ لا أعرف ماذا أفعل! ناديتها فلم تجبني، طرقتُ عليها الباب وأنا أناديها بصوت أعلى فلم تصل منها إلا شهقاتٌ متقطعة. فتحتُه فعلاً، ولكنها دفعته بيدها، وصاحت بصوت مخنوق أن أنتظر، فعدتُ أحوم في الغرفة بقلق.

مرت أكثر من دقيقة قبل أن ينطفئ صوت سعالها، وتناهى إلي بعده صوتُ أناتٍ طفيفة، ثم خرَجَت مثل شبح، ومشت متوكئةً على الجدار تلو الجدار، حتى بلغتني. أعطيتها يدي فاهتدت بها إلى جسدي، ونزلت بعينين دامعتين، وصبت في حجري بكاءً كثيراً... كثيراً.

كالأطفال، ينقطع في صدرها النَّفَس، ثم تعود لتردفه بعبرةٍ ضخمة. صوتها تشقّق في أنينه مثلما تتشقق الأرض الهالكة. عضّت لحافنا، وقميصها، وعضّت فخذي، وأصبحت أشعر ببلل في المكان

الذي تدفن فيه وجهها من حجري. كل شيء كان يسيل دموعاً: عيناها، وأنفها، وفمها الذي استحال إلى فوهة ألم، ومعبر برزخيّ تقطعه الآهة من أقصى جنوب القلب، إلى آخر شمال الله!

هدأت صوفيا وحدها، لم تكن تسمع كلامي حتى أقوله. إن البكاء وحده مسيرةٌ روحية لا ينبغي أن يقطعها الكلام. هذه الصخرة الكبيرة في صدرها كان يجب أن تتحرك، كان يجب أن ترتجّ محدثةً ضوضاء كهذه. لم أكن في حاجةٍ إلى أن أربت، أو أتخلل شعرها بيدي، كانت تأخذ مني ما يواسيها بقسوة، تخدش ذراعي بأظافرها الواهنة المبللة بالماء، وتعتصرني بقبضتين متعبتين، كأنها تريد أن تتوحد بي، كأنها تريد أن تسرق صحتي!

هدأت، وجهها صار سماءً تتقطّع فيها السحب، وصدرها هضبة تجوس تحتها رجفاتٌ متعاقبة. من يعرف ماذا كان يحدث داخل جسدها أثناء البكاء! كأن كل شيء ترك مكانه، وراح يجوس فيها بركض محموم، بجنون الثورة العصبية التي يتطلبها البكاء، الآن يعود كل شيء إلى مكانه، يرتب الفوضى التي حاقت، ويهدأ، هدأت صوفيا...

كان وجهها بارداً عندما وضعتُ يدي عليه، وكلها ترتعش كأن شيئاً امتصّ من جسدها مقداراً ضخماً من ماء الحياة. لم يكن من الممكن أن تولج أي شيء إلى فمها في هذا الوضع الصعب. قامت من حضني ببرود، وسحبت مشجب المغذي، وغرست إبرته في ظهر كفها، وألقت على وجهي أول نظرةٍ منذ انتهى بكاؤها، بالعينين اللتين

تلهثان كعصفورين قطعا صحراء شاسعة، ثم ربطت شعرها بلا مبالاة، ولمست بجبينها كتفي، وغرقت في الصمت...

في الأيام التي قضيتها معها فتحت صوفيا حقيبة مشاعري، واستأثرت برحمتي كلها. لا أتذكر أني أشفقت على كائن مثلها، ولا أوْدعت في قرارة صدري منذ ولدت أمنياتٍ بقدر ما تمنيتُ لها يد مسيح تبرئ جسدها من كل ما يؤذيها بمسحة طيبة! كنتُ أحلم بأن عندي لؤلؤة أصب منها في جسد صوفيا دماً جديداً، بدل الذي امتلأ بالأوجاع، وثقلت عليه رحلته في أورادها.

منظرها عندما تمشي بتعب، ثم تكتشف في منتصف الطريق إلى الطرف الآخر من الغرفة أنها لا تستطيع الوصول، فتعود أدراجها، منظرها هذا وحده كان يجعلني أشعر جلياً كم هي أجسادنا سجونٌ صغيرة. إن عيني صوفيا تطوفان العالم، إن روحها سقفٌ تنمو تحته كل الكائنات، ولكن صوفيا كلها، بكل ما لديها، محبوسةٌ في جسدٍ من خلايا خائنة!

تشعر بالخجل من إعيائها الشديد، وتخشى أن يتسلل إليَّ الملل من صحبة سعالها، وذبولها، وحركتها البطيئة، ولهذا هي الآن حائرة في ما تفعل. الآن وهي تسند رأسها المثقل بأسئلة متحاربة تستسلم، وتستجدي، إني أريد أن أعلقك مصباحاً في شقتي أيها الرجل الذي بقي من الدنيا، ولكني ضعيفة، ضعيفة جداً، لا أقدر!

جسدها الذي يتكئ على بعضه لا يمنحها طاقة تكفي لتغيير شكل هذا الصباح الذي بدأ مرعباً. ليلة البارحة أيضاً كانت قد قضتها

صوفيا خائرة القوى، ونامت مبكراً جداً، وتركتني وحيداً أقرأ المجلات، وأتابع قنوات التلفاز. إنها تشعر بالقلق، وتتساءل كم بقي من صبري عليها!

أعرف أن هذا ما يدور خلف جبينها الذي أسندته إلى كتفي، كأنها تناشدني البقاء بصمت، تتوسل مني التضحية بأيام من عمري سيأتي بعدها أيامٌ أخرى، مقابل أيام من عمرها لن يأتي بعدها شيء، لم يبق لديها وقتٌ لاختراع ظروفٍ جديدة، ورجلٍ جديد، ومشاعرَ جديدة!

كنتُ أتألم وأنا أستحضر أفكارها تلك، وأتخاطر معها بصمت. أنا إنسانٌ ولي مشاعر غزيرة، مهما كنتُ ملولاً، فلا يمكن إلا أن أتعاطف مع حالة كهذه. ماذا تظنني صوفيا! لماذا تعاملني كطفلٍ نَزِق لا يفهم ما هي عليه، ولا يُقدّر ما تمر به! أيعقل هذا! إنني لا أتخيل نفسي الآن في أي بقعةٍ من الوجود غير هذه الشقة، اشعر بأن وجودي بين جدرانها أصبح ضرورة بشرية، وأول واجبٍ حقيقي يناط بي كإنسان!

أشعر هذا الصباح بالذات، صباحنا العشرين، بأنها ليست مجرد صوفيا. تعبها المفاجئ هذا أطلق في داخلي صفيراً خاصاً من الألم، لقد بدأت تلتصق بقلبي، هذه المرأة الغريبة!

ضممتها كما لم أفعل من قبل، بذراعين يريدان أن يضماها فعلاً، وليس كما كنت أفعلها من قبل كجزء من الموقف يجب أن يكون. إنني أشعر أحياناً بأنها هشةٌ جداً، فأمسح على جسمها برفق

وحنو، وأحياناً أخرى أشعر بأنها لن تقوى إلا بدفقٍ مضاعف من العاطفة، فأضمها بعنفْ جميل يرتجف له جسدها الضعيف، وأتركها تلتقط أنفاسها على عنقي بصعوبة.

رحتُ أربتُ على ظهرها صامتاً، وعندما رفعت لي عينيها، حاوَلَت أن تحشو في فمها ابتسامةً ممتنةً، صامتة، وابتسمتُ لها أيضاً، ومسحتُ قطرةً شفافة كانت تلمع تحت جفنها، من عرق ربما أو من دمع، وجذبتها إلى حضني، وكدتُ أبكي مثلها.

في فمي طعمها قاتمٌ مثل قطعة ليل، الفتاة التي تتشبث برحمتي بقوة هائلة، الفتاة الغريبة التي تصر على أن تنشب في صدري غرابتها، والموقف كل مخالب. إنني إذ أحضنها أشعر بأنه ليس مجرد حنين يعبر، بل وشمٌ ما، لا أعرفه، له معنى يلتصق بقلبي، أعرف أني لن استطيع أن أنزعه أبداً، ولا أن أفهمه!

صوفيا تؤمن بأنها ستموت قريباً، تؤمن بهذا بشكل قطعي، ويقينٍ منقوعٍ جيداً في آلامها المتراكمة، وتعرف أني سأمضي بعدها الى بقية حياتي. صوفيا تعمل لتجعل قلبي أنا هو شاهد قبرها، وعليّ نقشُ كل عمرها القصير، وكل سيرتها التي قالتها، واختلقتها، وجعلتني ألمسها معها. لم أفهم حتى الآن معنى أن يكون دوري في حياة امرأة مجرد شاهد قبر! ماذا يجب أن تفعل شواهد القبور؟

ترى كم سيبقى طعم صوفيا في فمي؟ كم ستمر على لساني من عربات الكلام حتى ينطمس اسمها فيه تماماً، وكم ستتطلب إجراءاتُ نسيانها من الحزن حتى تتم، ومن النساء حتى تغيب، ومن السنوات حتى تصبح ذاكرةً مستقلة ميتة، لا تؤلم مشاعري الحاضرة!

ألقت نظراتها في مكان بعيد، وظلت نائمةً على صدري. لفرط سهومها تخيلتُ أنها نسيت من أنا، وأين نكون، كان في نظراتها شرود واسع جداً. . .

شرودٌ لا يحده شيء، شرودٌ يمتدُّ في كل اتجاه كبساط هائل، كغلاف جوي. شرودٌ خرج بها من كل شيء، والوجود كله، ما خُلق منه وما لم يُخلق، أصبح مجرد أشياء رصّها الله حولها، كما تُرص الأغراض في سقيفة بيت!

نظراتها تلك التي ألقتها في وجه إله، خارج مدارنا الذي نعرفه، خارج هذا الكون الذي ستتركه ونبقى، خارج الحقيقة الزمنية، خارج ما لا تُظله السماء أيضاً، نظراتها تلك كانت تفتح آخر باب في الوجود، آخر باب على الإطلاق، وتخرج منه، وتجلس وراءه وحدها!

أنا الذي هنا، تحت رأسها المتوسد صدري، أعرف أني خارج هذا الباب! ولا أشعر بالتجاهل. عيناها تلدان آراء كثيرة الآن، عينٌ تؤمن، وعينٌ تكفر، إنها في حالة غير بشرية أبداً، يحولها الله إلى أنبوب، وينتهز الفرصة ليمرر من خلالها مليون فلسفة جديدة للعالم، مليون فلسفة تخرج من شقتها، وتنتشر في الأرض، وتنمو، وتتكاثر، لبضعة قرون، حتى يهيئ الله أنبوباً آخر!

صوفيا التي تنام على صدري الآن، مفرزةً آلاف الحقائق اللامرئية واللامحسوسة التي لا أشعر بها، ما زالت غضةً، وشفافةً كألوان الأعلى، ولكنها ستختلط جيداً بالموجودات، وما دمتُ أحد

البشر الباقين على الأرض، فستدخل عيني مع الضوء، وفمي مع الكلام، وجلدي مع الحرارة والبرودة. صوفيا المشعة في ذروة الخصب التأملي، أكاد أحبس أنفاسي حتى لا أقطع خشوع المكان عندها، لأن الحياة بدت هامدة من حولنا، وكأنها بدأت في تأبين كبير لصوفيا!

بقيت تبثُّ إشاراتها إلى الله طويلاً، قبل أن ينتهي لقاؤهما الأثيري ذاك، وجاء من النافذة هواءٌ بارد ليختم الجمود الذي أخذ الطبيعة بغتةً، فتلتصقُ صوفيا بجسمي أكثر، ثم ترفع رأسها لتنظر مباشرةً إلى عيني، وتبتسم ابتسامةً كبيرة، هادئة. . .

اقتربتُ لأقبّل شفتيها الباسمتين، ولكنها زمتهما أكثر، وابتعدت عني وهي تشيح بيدها بمرح صامت، وتشير إلى أن رائحتها لن تعجبني، ثم تحركت بهدوء، ليصرَّ السرير تحتنا باحتجاج صغير، ونزعت إبرة التغذية من كفها، ووقفت، ثم خرجت من الغرفة. . .

ذهبتُ إلى الحمام بدوري لأغتسل من وعثاء النوم، وخرجتُ لأجد صوفيا قد أحضرت لي وجبةً صغيرة أعدّتها الخادمة، بينما وجدتها تشربُ رشفات ضئيلة من العصير، تبتلعها بغثيان بادٍ على ملامحها، ثم تحاول أن تبتلع بضع حبوب ملونة من الأدوية، كلها مسكنات للألم، وبعضها كان حبوباً منشطة محظورة طبياً، وقد عرفتُ ذلك في ما بعد.

حتى وهن ما قبل الموت تحاربه صوفيا بهذه الضراوة! إن

صوفيا لا تعالج نفسها الآن، لقد وافقت على الموت تماماً منذ أن رفضت العلاج الكيميائي، والإشعاعي، وتعرف أن لا شيء غير ذلك يمكن أن يجدي في حالة المرض الذي تحمله، ولكنها تريد أن تعيش قبل هذا الموت الموقوت حياةً لا يبعثرها التعب!

بعد ساعة، كانت صوفيا أكثر نشاطاً، وقد بدأ مفعول الحبوب المنشطة يطرد الخمول من جسمها. راحت تضحك، وتتحرك بعافية جيدة، وأكلت نصيباً لا بأس به من طعام الغداء، وشربت القهوة، وقبلتني كثيراً. . .

مرت بقية اليوم روتينية، برغم بدايته التي لم تكن كذلك، وفور أن نزل الغروب، وودعناه معاً على الشرفة، بدأ جسمها في الكلام، لتأخذني إليها، وعيناها تومضان مثل امرأة العزيز، ويرتع في عروقها تيار شهوة.

هناك، على السرير الذي كان مأتماً صغيراً أول اليوم، كانت صوفيا تعتذر عن كل خطايا الصباح باجتهادٍ ليلي شاهق. أنهينا التقاءنا بموسيقى رائقة أغلب الوقت، وبدأت السكينة تغشى صوت صوفيا، سكينة الجسد الذي انطفأت حدةُ جوعه، وركن إلى نصيبه من الماء والنبضات العصبية، يهضمها ببطء، ورضى.

كنا نتكلم، عندما اتسعت حدقتاها فجأة، وبدا القوس المخضر في عينيها واضحاً جداً من المسافة القصيرة، مموَّهاً بنقاط سوداء منتظمة تحيط ببؤبئها مثل قوس يلمع تحت ضوء الأباجورة القريبة، ثم

ألقت نظرتها الخضراء كلها على النافذة، وسحبت شفتها السفلى إلى الداخل كعادتها عندما تفكر، قبل أن تلتفت ناحيتي مرة أخرى، وتقول:

– أتدري؟ عندي أمنية. . .

ابتسمتُ لها باستفهام، فتابعت كلامها بانبهار طفولي:

– أن أحمل منك، وألد في السماء!

(٨)

عندما أتخيّل كيف تبدو الشهور، يتراءى لي أكتوبر دائماً رجلاً طيباً، مكلّلاً بنبوءة الخريف، وبالزمن الذي ينحني لحقيقة السقوط في النهاية، ويأتي من بعده برد اليقين الذي لا يُرد. قلتُ لها إنه من المربك أن نلتقي في هذا الشهر الذي تُجرِّدُ فيه النفس أعلاقَها كالأشجار، وقالت لي صوفيا: «ومن المربك أكثر أن تولد فيه!».

وقتها فتشتُ في كتاب الأبراج سريعاً، وشعرتُ قبل أن أصل إلى أكتوبر بأنها من العقرب وليس الميزان، برغم أني لم أسألها إذا ما ولدت في أول الشهر أو آخره، ولكنني شعرتُ منذ حواراتنا الإلكترونية الأولى بأنها مليئة بعاطفةٍ حادة، كتلك التي تجتاح النفس عندما تمشي في طريق مغطى بأوراق الشجر الصفراء الساقطة، ولكنما تكبحها إرادة صارمة جداً، كأفرع الأشجار إذا تعرّت، وانتصبت، وطعنت السماء. كانت مولوداً مثالياً لبرج العقرب، وكنتُ مصيباً لأول مرة، بينما أشياء كثيرة في علاقتي بصوفيا بعد ذلك، لم أكن مصيباً فيها على الإطلاق!

كنتُ أعيش وحدةً هادئة بعد طلاقي، وانسحاب زوجتي السابقة تدريجياً من حياتي كما تنسحب الفصول وتنتهي. كنتُ أقضي ساعات

على الشبكة، وصوفيا تقضي ساعاتٍ مثلي، وآلافٌ غيرنا، من بلدينا، يقضون هذه الساعات، ولكنها كانت لي، هكذا وقعت قرعة الله بيننا، وكان وجه العملة الأول وجهي، ووجهها الثاني صوفيا.

اختلفنا أول يوم حول جدوى البقاء، ومعضلة الرحيل، ولا أتذكر حول أي مسألة اجتماعية كان الخلاف، احتد النقاش، واكتشفتُ بعد ذلك، أن احتداده لم يكن لأننا مختلفان، ولكن لأن كلاً منا كان يسعى إلى أن يعرف حدود الآخر، وقوته. كان يريد أن يعرف من هو، وما مدى تمسكه بالبقاء كما هو، لأن حالتينا كانتا تستدعيان أن نفكر في كل القادمين كفرصة محتملة لكسر الرتابة!

واستسلمنا معاً في اليوم نفسه، لأن كلاً منا كان مشغولاً بترتيب سلام ذاتي في داخله؛ صوفيا التي أخذ مرضها منحنىً جاداً بالفعل، وأنا الذي انتهت علاقتي الطويلة بأنثى كانت زوجتي، ولم أتصالح بعد مع طعم الفراش الوحيد، ومع رائحتي فقط في غرف المنزل.

كانت صوفيا بالفعل تفتشُ عن جدار آمن تسند إليه ظهرها. عرفتُ منها أنها جربت آخرين قبلي، حاورتهم، هاتفتهم، ولكنهم جميعاً لم يأتوا بالحل الصحيح لأسئلتها البكماء! كان الإنترنت لدى صوفيا مجرد أداة بحث كبيرة عن رجل آخر، وأخير! تفتح معه أنموذج الطبيعة قبل أن يغلقه المرض، أو تختمه الأقدار بشمعها الأحمر!

عرفتُ هذه الحقائق منها في زمنٍ متأخر، بعد أن تحول لقاؤنا الإلكتروني إلى الهاتف، وفي مرحلة فتور قصيرة مرت بيننا، افتعلتها أنا عندما شعرتُ بأنها صارت تميل إليّ أكثر مما أقدر على إسنادها،

محاولاً أن أطفئ شعلة العاطفة التي تريد أن تنشأ. كنت أتخيل أن صوفيا تعاني وحدة عاطفية ليس أكثر، ولم تكن صوفيا هكذا فقط، كان عندها مشروع لانبعاث جديد لهذه العاطفة الموؤودة سلفاً!

وعندما أحست صوفيا بفتوري المقصود في هاتفنا المفتوح ذاك، وضعف احتمالات ما يمكن أن يكون بيننا، بدأت تتكلم بعفوية أكبر، وبصراحة من لا تبالي أيعجبني ما تقوله أم لا. حدثتني بصوت مليء باليأس، من دون أن ترد في كلامها حاجة لا تقولها حياءً أو خجلاً، وأيقنتُ في نفسي أنه ربما كان أكثر ما يفسر أي إنسان، ويكشف دخيلته، ويعرّيه على بساط الوضوح، هو حاجاته الفعلية!

هل كانت صوفيا تدركُ ذلك؟ وهل كانت بعفويتها الأخيرة في الكشف عن ذاتها، وروحها، ورغباتها، ترمي صنارتها الأخيرة في بحيرتي؟ أم إنها فعلت ذلك بدافع عفوي أيضاً، ولم تعرف أنها ستثير اهتمامي البائت في الوقت الأخير؟! إن أنثى تتحدث من دون قيود لأول مرة شيءٌ يقطع فتوري فوراً، ويضعني في مواجهة منهج أنثوي جديد، يحتاج إلى استفهام، وتفحّص، وحيرة، واستنتاج، ولم تزل هذه الأدوات قريبة من يدي، لحسن الحظ، أو لسوئه، من يعلم!

الرجل الطيب، أكتوبر، جاء بها هكذا، حافيةَ الصوت، وصريحةً جداً حدَّ الصدمة أحياناً. كانت تتشبث باختياراتها من الحياة، وتعلم أن الاختيار دائماً عرضة خطأ وصواب، ولكن قوة التشبث في الاختيار قد تجعله صواباً برغم القوانين! وكأنها ترغم خياراتها دائماً على أن تكون صواباً بقوة تشبثها بها.

الآن فقط عرفتُ عن مرضها. لا أدري لماذا كان صوت الشك في داخلي آخر الأصوات التي تعنيني! كأني كنتُ بين احتمالين، أن تكون صوفيا مريضة فعلاً، وهذا شيء مثير، أو تكون صوفيا تكذب ببراعة، وهذا أكثر إثارة!

ولكنّ حدساً طفيفاً، أستطيع أن أنتشله الآن من ذاكرتي تلك كان يهمس بأن صوفيا مريضة فعلاً، وأن بكاءها الذي دائماً ما يقتحم المكالمة فجأة، ليس بكاء الافتعال، ولا الإحباط، ولا الطمع، ولكنه بكاء الذي يجلس حبيساً في غرفة مغلقة، بدأت جدرانها الأربعة تتحرك نحوه تدريجياً!

إن صوفيا مُرهقةٌ جداً، وأنا كذلك، وماذا يمنع لقاء المرهقين؟! شيء هنا جذبني نحو مزج التعب بالتعب. إن الخمور إذا مُزجت ببعضها تصبح أشد فعالية، والتعب خمر الله في الدنيا، يصبّه في كؤوسنا، وكلنا نسكر به برتابة! لماذا لا أجرب مزج تعبين إنسانيين، ربما يتغير شكل السُّكْر الذي طالما مللنا منه!

كنتُ آنذاك مرشوشاً بماء الركود، ومخدَّراً في العمق المكين، ويائساً مما يأمله الآخرون وراء أفق الزمن، لأني كثيراً ما ذهبتُ وراءه بالفعل. قرار السفر لم يكن يكلفني دائماً أكثر من تذكرة، ما باله هذه المرة يبدو غليظاً كأنه حبل مشنقة؟ ألأني أخشى أن تخيّب صوفيا أملي بالاختلاف، فتكون تلك طعنة الرتابة الأخيرة في صدري!

طالما كانت قراراتي مجرد معادلات رياضية بسيطة، يجب أن يأتي طرفها الناتج مكافئاً لرغبتي في التغيير، أياً كانت أطرافها الباقية!

أياً كانت، ولكني لم أكن أفلح دائماً في وضع معادلات بسيطة كهذه مع صوفيا، أرتب بها موقفي معها. لقد حكت لي بعض الحكايا في الهاتف، فافتعلتُ أني مباشرٌ جداً في قراري عندما حملتُ حقيبتي الحائرة إليها، ولكني فقدتُ طائرتين بترددي، وتراجعي، قبل أن تحملني طائرة ثالثة، وأنا أقرر أنه لو جاءت صوفيا رتيبة، فليس إلا في الحانات عزائي!

عرفتُ عنها أشياء، ولكني لم أعرف بالتحديد تلك المساحة التي أجدبت من بيروت في عمرها. صوفيا ترتب الحكايات حسب أبجدية جذبي إلى كمينها الطيب، الأخير، وأنا أخبرتها من صالة المغادرة في مطار الرياض أني بدوري خائف بعض الشيء، ومعطل المنطق تقريباً!

قالت لي بعد أن استيقنت من مجيئي، ربما لتخفف من حدة امتنانها المفترض لي:

– إذا ما فيك تجي خلاص، مو مشكلة...

– ليه؟

– ما بدي غلّبك...

– يعني ما أجي!

– لا، يعني...

– يعني شو؟

وكان صوتها ينحدر نحو بكاء:

- ولا شي، شكراً كتير معتز . . .

- عفواً صوفي . . .

كنتُ أشعر بحموضةٍ ما في عقلي، أو قلبي، لا أتذكر تحديداً، ولكنها لا تبعث على السكينة. إنني في الثلاثين وما زلتُ على نزق العشرين. فكرتُ في أني منحتُ الأمر أكثر مما يستحقه من القلق، وكما أن قرار المضي في يدي الآن، فإن قرار العودة كذلك، في أي وقتٍ لا يطيب لي فيه المقام.

(٩)

صوفيا تشربُ ثمالة الحياة فعلاً، ولكن هذا لا يعني أن أحتمل سكْرها إلى هذا الحد. إنها تفكر في الحمل الآن، وبشكل فانتازي مخجل، وكأن هذه الأشياء الكبيرة في الحياة أصبحت مجرد كراتٍ تتدحرج، وتلهو بها صوفيا لهوَها الأخير. لماذا لم تدرك وحدها ما لم أستطع أن أقوله قبل أن تفرج عن حلمها بهذه الزاوية؟ إن خلق إنسانٍ آخر يوازي انتهاء حياتها الذي يجعلها تفكر في مثل هذا اللهو أصلاً!

إنه ليس مجرد نزوة أن تجرب كل شيء، بل يبدو لي شأنها وكأنه حقدُ أن تترك الحياة من دون أن تجرب كل ما فيها. عليّ أن أدرك جيداً أن صوفيا برغم ما قالته لا زالت متوازنة، ولكنها إذا مرضت ربما تفقد توازنها هذا، ربما تجنُّ وأنا معها، وعليّ أن أتجنب أي مشاكل يمكن أن تتركها لي، وترحل!

ربما كانت هي مستيقنةً من أنها ستموتُ قبل أن يتم هذا الحمل، ولكني لم أكن كذلك، وهذا الاحتمال الوحيد الذي يمكن أن أقبله كان ضعيفاً إزاء احتمالين صارمين في الجهة المقابلة، أن تشفى، ويبقى الطفل معلقاً بيننا ككيس ذنوب، أو تموت وتتركه أمام عينيّ، أجهل ماذا سيكون مثلما يجهل هو من يكون!

ثم إنه غالباً سيأتي مريضاً، كأمه! مستحيل، إن الفكرة برمتها مجرد هذيان ما قبل النوم. صحيحٌ أني أحب التغيير، وملاحقة الغرائب، ولكن هذا لا ينفي جديتي في اعتقاد الحياة. إن التحوّل أصلاً هو السلوك الجاد الحقيقي في الحياة. ربما حالتي مردها أني إنسان جاد أكثر من اللازم! أو أكثر الناس جدية على الإطلاق، إلى درجة أن جديتي أصبحت تبدو وكأنها عبث في نظر الآخرين الأقل جدية! وفي المقابل، فإن الثبات محض هزل، وكل ثابت يكاد يُضحك الأشياء من ثباته، مثلما تثبت وجوه الممثلين فجأة قبل أن ينفجر المشهد بالضحك!

عندما أقرر أن أبتكر، أو أبحث، أو أتبع غرابةً ما، فإنما أفعل ذلك من فرط اهتمامي بمراقبة مصير الكون! لأني أؤمن بأن استمراريته مرهونةٌ بالتغيير، وإذا لم يكن في الوجود متغيرات تكفي لتسييره إلى الأبد فإن الأشياء يجب أن تتوالى، وتتبادل أدوارها على الأقل، مثلما الفصول تتناوب، ومثلما الليل والنهار يتعاقبان. لا يمكن أن تكون هناك آلاف الفصول، وملايين الحالات الضوئية التي تجري على اليوم!

ولأني جاد إلى هذا الحد، لا أقبل ما تقوله صوفيا، ولا أفكر في أنني ربما أترك لشهوتي وشهوتها فرصة أن تتقاذفا مصير مخلوق مثلما يتقاذف طفلان كرة قدم، ولم يكن رفضي آنياً بالطبع.

أخذتُ الأمر على محمل الهزل، ضحكتُ لها ضحكةً بطيئةً، وقلتُ:

- طفل مرة واحدة!

- أجل، طفلٌ من أبناء السماء!

- أوه، رائع إذاً هذا الطفل الذي لن ترهقني أبوته!

- نعم، رائع حتماً، رائع جداً. . .

ثم ألقت نظراتها في ما وراء النافذة، بينما اتجهتُ بوجهي إلى الجهة المقابلة محاولاً الدخول في النوم قبل أن يستمر النقاش. صمتت صوفيا وهي تفكر، وعلى المرآة كنتُ ألمح وراء جبينها ضوءاً أخضر يُنير مساحة أمل مبهمة، وعيناها هادئتان جداً، مثل جارتين تتبادلان تحية الصباح.

- تخيل شكل الطفل الذي يتربى وسط الغيوم النقية، تخيّل فقط يا معتز. . .

جاءني صوتها من ورائي. سكتتْ سكتةً قصيرة، ثم تابَعَت بصوتٍ بدا أكثر عمقاً، أو أنها تحاول دفعه ليكون عميقاً، لتُلقي في قلبي قناعةً ما:

- يلعب بين بيوت الملائكة، يختبئ في أجنحتهم، يركض في السماء، في أزقة النور، في حواري الحقيقة. . .

- رائع. . .

- ويحيِّي ربه كل صباح، ويكبُر. . .

- وهل سيتذكر أباه الذي في الأرض؟

- وينسى أمه التي في السماء أيضاً. ليس بحاجةٍ إلينا يا عزيزي...

ابتسمتُ لها ممازحاً:

- وهل سيكون مسلماً أم مسيحياً؟

- ليس بحاجة إلى مسجد ولا إلى كنيسة هناك. سيسجدُ عند ربه تماماً، ويطلب منه ما يريد!

تحلم صوفيا بصوت عال. تُشركني حتى في طنين أفكارها العابرة. لم تكن تنتظر مني قراراً، أو موافقة ما، لم تكن تعرض الأمر لموافقتي أصلاً، مثلما هي منذ البداية، تبدي الرغبات بعفوية، وتتركني أنا في مواجهة تنفيذها، منقاداً برغبتي في المشي إلى آخر الطريق، ومراقبة كل أنواع الابتسامات التي يمكن أن يصنعها فمها.

كنتُ أغمض جفنيَّ تلك الليلة على شعور قلق بأني قطعتُ مشواراً طويلاً في ذلك. حدسٌ قديمٌ في داخلي ينبئ بأن تفاصيل صوفيا شارفت على النفاد، وأنها عما قريب ستقع في تكرار ما، وستدخل معي مرحلةً أتوجَّسُ منها كثيراً، لأني ألتقي فيها بعدو حياتي الأكبر: الملل!

ولكني سأكون حازماً جداً عندما يتأكد لي ذلك، ولإمعاني في هذا الحزم كانت أصابع يدي تلتقي، وتصبح قبضةً تحت الفراش. لستُ مسؤولاً عما يحلُّ بصوفيا، فإذا بدأ الأذى يغزو نفسي فلا بد من أن أتركها وأرحل. ربما لن تفهم كيف هي آذتني، أو لن تشعر بأنه

سببٌ كافٍ لهجرها، ولكن هذا هو قدَري دائماً، ألا يفهمني الآخرون كلما انقلبتُ إلى منقلبٍ آخر.

فكرتُ أيضاً في أن هذا الرحيل ربما يأتي بعد أسبوع على الأرجح. إنني أستطيع أن أقيس مدى تضخم فعل الرتابة في داخلي، وأشعر بمستوى سوء الحالة التي يمكن أن أحتملها. قد تغلبني مشاعري، ولكن للمشاعر قوانين في النهاية، وإذا كانت قوانينها تحتم الخير، والجمال، فإن تعرّضي لأذى نفسيّ مفرط كالأذى الذي تلحقه بي معاشرة الأشياء المملة ليس من الخير، ولا من الجمال، ولا ينبغي أن تضطرني مشاعري إليه!

عندما تتحول صوفيا إلى لوحة، سأرحل! لا يمكن أن أقبع أمامها أكثر، أنا الذي لم أقف أمام الموناليزا نفسها أكثر من خمس ثوان! وبالمناسبة، إنها خطيئةٌ كبيرة تلك اللوحة، خطيئة دافنتشي التي لا تُغتفر! لا أتصور كيف سُوِّلَ له أن يرسم ثباتاً فاحشاً إلى هذا الحد، ويترك العالمين يتفرجون عليه بإعجاب يكاد يُفسد فطرتهم في الحركة والتغير! إن الرسامين لا يعرفون ماذا يرتكبون! ولا العالم يعرف من هم فعلاً أحقّ بالتمجيد!

إن رسّامي الصور المتحركة هم أعظم وأقرب إلى الله من كل رسامي العالم! ما عدا السورياليين. يا لعبقرية السورياليين الذين انتبهوا فجأة إلى ذلك الانحراف الهائل الذي كان الرسامون يقودون ضمائر الناس وأذواقهم إليه، فابتكروا تلك اللوحات التي لا تنتهي، تلك التي تجر في وسطها ذوات المشاهدين، وتمزجها باللون، والظل،

والنسيج، وكل الأشياء الطموحة الأخرى التي توجد هناك. إنهم عباقرة، هؤلاء السورياليون مصلحون فعلاً!

كانت صوفيا لا تزال تحلم ورائي بطفلٍ أصنعه لها، في الوقت الذي كنتُ فيه أحدد تاريخاً تقريبياً للرحيل! رأيتُ في النوم أن فوهة مكان أسفله واسع، وأعلاه ضيق، تنغلق عليّ، الحلم المعتاد الذي أراه كلما استشعرت حساسيتي غبار الرتابة، ولا أدري ماذا رأت صوفيا في النوم، ربما رأت عدة أطفال يلعبون الغميمة بين السحب!

في الصباح، كانت تبدو نشيطة، ونشاطها الصباحي مؤشر جيد كما لاحظت، ويجعلني سعيداً، لأن الحالة التي تستيقظ عليها دائماً هي ما تستمر عليه طوال اليوم. في الصباح يمنحها الله نصيبها من الصحة، إما أن يأتي قليلاً فتعتلّ، وإما أن يأتي وافراً فتنشط. استيقظت قبلي، وامتطتني فجأةً...

قلتُ لها بهدوء:

– صوفيا، إذا كنتِ تريدين طفلاً سماوياً فمن الأفضل أن تصنعيه في السماء، وليس في الأرض...

ابتعدت عني بصمت، وغمغمت بكلام لم أسمعه، وكادت تبكي، لولا أن تداركت صوتها بسرعة، وافتعلت ابتسامةً كاذبة وهي تقول:

– عم بمزح حبيبي، شو صدقت!

– لا، ما صدقت، الأمر غير قابل للتصديق أصلاً.

– ياللي بدك حبيبي... اللي بيريحك بيريحني...

في منحنى معتاد من العلاقة العاطفية، يتبادلان مقاليد التدليل، تصبح المرأة أكثر انكساراً بعد أن اطمأنت إلى أن حقوق كبريائها محفوظة عند من يستحق التنازل، وتبدأ في تجريب جيناتها الأمومية، والرجل تتعزز ثقته بنفسه، ويعجبه الوضع الجديد.

منحنى مكرر، يا للرتابة!

(١٠)

اليوم الثاني والأربعون، تركتُ صوفيا نائمةً على إثر مخدر، وخرجت من شقتها لأول مرة منذ وصولي.

داخلني الملل تماماً. حباتُ الرمل اكتملت في الدورق السفلي، لقد اختلّ المشهد النوراني الكبير الذي كان يغطي خلفية وجودي عندها، وأصبح كلامنا مكرراً، وأحاديثنا معادة. خشيتُ أن تشم صوفيا رائحة فتوري، هي التي اجتهدت كثيراً في خلق أيامٍ جديدة، لا تتشابه، ولا تتكرر.

أطلقتُ قدميَّ في بيروت مثل جمَلٍ شارد، ألوك الصمت، وأتأمل الأشياء بعين باردة، وأمشي مشيةَ الكثبان، يداً في جيبي، ويداً تتدلى، وأفكاري تتأرجح فوق رأسي مثل هودج.

قررتُ منذ خروجي أن أمشي ولا أركب، أختزن الهواء البارد، وأناقش الأشياء التي أمرّ بها بصمت، وتساؤل. أشعر الآن وكأني في مفترق طرق لقضية مصيرية كبرى، برغم أني لا أعيش سوى ورطة صغيرة في شقة فتاة مريضة، ولكن في غمرة إحباط ما، تستوي القضايا، كلها سيئة!

لأول مرة أمشي في بيروت وحدي، لولا أن هذه المدينة لا تترك أحداً يمشي وحده من دون أن ترمي كل ما في يدها، وترتب شعرها بسرعة، وتلتقط حقيبتها، وتتأبط ذراعه، ويمشيا. شعرتُ بها كذلك، فخَفَتَ في داخلي أزيز الملل الذي تصاعد كثيراً في الشقة حتى كدتُ أصاب بالجنون، لا سيما بعد أن صارت صوفيا تنام كثيراً، بسبب المسكنات، والوهن المتزايد.

رحنا نتكلم، مشياً، يترجم لنا الرصيف، والبحر، والشبان الذين يلعبون الشطرنج، ويدخنون الأراجيل، تجاوزتهم والمدينة توزع عليهم ابتساماتها، وتظل معي حتى صخرة الروشة، وبلوغها كان يعني أني قطعتُ كيلومترين كاملين، صامتاً، ماشياً، مسكوناً بقرارات مترددة في قضية أكثر تردداً.

وقفتُ أتأملها دقائق، صخرة الروشة، وهي منحنيةٌ في البحر، وكأنها مقبض حقيبة يحمل الله بها الأرض إذا سافر. هذا يجعلها أكثر نفعاً لو أن الله يسافر، ولكن يبدو أن السماوات المطويات بيمينه لا تحوجه إلى سفر ما، وإلى أين!

غربت الشمس، تدريجياً، شعرتُ بانقباض طفيف في قلبي. تتركني الشمس واقفاً أمامها وتمضي، هكذا بلا أدب، لا أعتقد أنها كانت تفعل هذا مع آدم الأب أبداً، لكن يبدو أنها ملّت من وجوهنا، مثل موظف قديم في إدارة بالية، ينفذ عمله بروتين، من دون أن ينظر إلى محدثه أصلاً.

بدت صخرة الروشة أثناء الغروب وكأنها شيخ سجد منذ ألف

سنة، ونسي أن يعتدل! ثابتة، لولا أن التضاريس المعلقة في رقبة التاريخ بريئة من جريمة الثبات. صخرة الروشة ليست مرميةً في صحراء مهملة حتى يكون ثباتها قبحاً، إنها واقفة من أجل أن يتحرك ما حولها، وتبدو حركته واضحة.

هي، وبضعة مشاهد أخرى في العالم، لديها إعفاءٌ كوني من الحركة. لا بد لكائنات معينة من أن تضحي من أجل الكون، ولذلك تبدو مقدسة من دون أن نفهم سبب قداستها، مثل صخرة الروشة، هكذا فكرت. أحياناً أشعر بأني أفرط في تنظير هذه الأشياء، ولكني أشعر بها حقاً.

تجاوزتُها، أكملتُ المشي على قدميّ في بيروت، بينما أبناء بلدي الآخرون يشغلون شوارعها بسياراتٍ منتفخة بذخاً، ويترجّلون منها كما تترجّل العرائس. إجازة نصف السنة بدأت في الخليج على ما يبدو، وجاء الذين يغتصبون أريحية المدن، ولا يقولون شكراً لبيروت، مشياً على الأقدام.

كم بذلت هذه المدينة لظمئنا الصحراوي القادم من الجنوب طوال عقود، وما زالت تكيل لنا الكثير من الفرح، وما زالت تجاهد مثل امرأةٍ في أواخر الثلاثينيات لتظل هي الأثيرة بعد أن تجاوزتها قوافلنا إلى مدن أخرى، تجاهد حتى آخر قطرة بهجة، لتبقى هي قاموسنا الأخضر المعلَّق في شمال الخريطة دائماً.

ما زالت جميلة، تجيد خلق فتنتها أمام العيون بثقة، برغم البثور التي تغشى وجهها من حينٍ إلى آخر، وبرغم الطائفيين، والمنافقين،

والسياسيين، والقوّادين، والشحّاذين على عتبات الدول الأخرى، ما زالت تستطيع أن تنجز فصلاً بدون سياسة، وتقضي ليلةً بدون أن تمتلئ عيناها بدموع الماضي، وحلقها بحشرجات الحاضر الصعب.

ونحن دائماً الأمة التي تختار أجمل مدنها، لتقدمها قرباناً للسياسة!

يقولون إن عمر هذا المقهى أكثر من خمسين سنة، وما زال مزروعاً في مكانه البحري نفسه، وزاهياً مثل صدَفة ألقاها الموج هذا الصباح فقط. جلستُ على مقعدٍ منه يمنحني أغلب البحر، أراقب وجوه الناس، وألتقط أحاديثهم المتسربة.

أشعر بأن المقاهي القديمة أكثر من مجرد مقاهٍ أحياناً. إنها دفاتر تاريخ، إنها أيضاً مناهج اجتماع، ومراجع سياسة، وكتب آداب، ومؤشرات اقتصاد أحياناً. المقهى العريق يشبه جامعة غير مستغلة، جامعة شعبية، بدون قبول وشهادات، وتؤهل للاندماج جيداً في تراب المكان.

طلبتُ قهوة تركية، وانتظرتُ النادل أن يعود بها مزمعاً أن أدير معه حديثاً عابراً. لا يبدو مشغولاً، ولكن تبدو ملامحه مغسولةً بالقصص، أو ربما هكذا وجوه البيروتيين غالباً. عاد إليّ بركوة مليئة، وكوب أبيضَ، وكأس ماء مرقش بقطراته الباردة، وصبها، وابتسم...

- الهيئة الجو بدو يبرد أكتر...

- معلوم، بتشرين التاني نحنا...

- وبدا تشتي...

لم يجب عبارتي الأخيرة، ربما لأني نطقتها كمن لا يبحث عن رد. راح يطوي منديلاً قماشياً بعثره زبونٌ على الطاولة المجاورة ومضى، وأنا أشرب بهدوء أكبر. رفع إليّ عينين ذابلتين، ثم سألني:

- أنت من السعودية؟

- نعم...

- بتحكي لبناني منيح...

- وُلدت في لبنان...

رفع حاجبيه باندهاش مصطنع، ثم سألني:

- والدتك لبنانية...

- لا...

لم أعد أرغب في الكلام. كان واضحاً أن عباراته الرتيبة تأتي على قدْر ما يأمله من بقشيش ما قبل الانصراف! أشعر كثيراً بأن المدن تهينني عندما تعاملني كسائح! تكيل لي قسوةً لا أستحقها عندما تحرمني من هوية المكان، أن أكون ابناً لها بمجرد وصولي، مثل هذا الذي يكلمني، وصوفيا التي تركتها نائمة، ونزلتُ لأعيش مع بيروت يوماً غير متصالح فيه معها على ما يبدو!

راقبتُ قرب المقهى ثلة من الشبان، راحوا يتسابقون على الرصيف بألواح التزحلق، ذات العجلات. كانوا يمارسون لهوهم بوتيرة ثابتة، وهم يرمقونني بين حينٍ وآخر لأنني المتفرج الوحيد على

الأرجح، أو ربما لأن ملامحي بدت لا تشبه المدينة. شعرتُ بغربة وَجِلة. ثمة شيء في رائحة بيروت هذه الليلة، شيء لم أشمَّه فيها من قبل. ثمة عتب ما تجاهي!

المدينة تدير لي ظهرها، وأنا لا أتحمل معاملة كهذه! ربما هي تأخذني بجريرة أبناء بلدي هذه الأيام، عندما يفتح بعضهم باب غطرسته على مصراعيه ليذكّر أبناء المكان بأنهم بحاجة إليه، وإلى إنفاقه السياحي الضروري، وأنا أطالب بهوية ليست لي. ربما لم يكن هذا يوماً مناسباً للكلام مع بيروت، إنها أنثى صعبة أحياناً!

اشتريتُ حلوى لصوفيا، وعدتُ في سيارة أجرة إلى شقتها. كان تقديري لوقت إفاقتها دقيقاً بعض الشيء، فوافيتها وهي في أواخر الصداع الضبابي، وما زالت بقايا من المخدر تسكن في أعصابها المرهقة. قبلتُ جبينها، ثم استأذنتها في حمامٍ يغسل عني الكربون المتراكم من المشي.

عندما خرجت، كانت صوفيا تغير ملابسها، ويصافحني ظهرها المرشوش بنمشٍ طفيف يزداد كثافة عند الكتفين. بدا لي هذا النمشُ جميلاً تحت ضوء المصباح، مثل فتات الخبز، وتخيلتُ نفسي حمامةً تأكل منه حبةً حبةً، وتملأ حوصلتها الصغيرة من ظهر صوفيا.

فكرتُ لوهلة، في أن أتصالح مع بيروت عن طريقها. أليست صوفيا بيروتَ صغيرةً ليس إلا؟ هل أشكو إليها ما فعلت بي بيروتُ الكبيرة هذا اليوم؟ شعرتُ بأني لا بد أن أفعل، أحتاجُ منها إلى بعض

الكلام المواسي، لذلك لم تكد تسألني أين ذهبت حتى قلتُ لها إن بيروت لم تكن طيبة معي!

- خرجك! مين ألّك تفلّ وتتركني!

- كنتِ نايمة صوفيا!

تبتسم بمكر صغير، وتغمز بعينها وهي تقول:

- كنت نايمة، ولاّ كان بدّك تشوف كم صبية غيري!

- صار لي أكثر من شهر في شقتك، ما طلعت أبداً.

تغيّرت ملامح صوفيا قليلاً، وصمتت. أدركتُ سريعاً أنها ربما اشتمّت في كلامي رائحة تعريض بمعروف أسديه إليها. شعرتُ بها تتألم. كنتُ أحسّ بالضيق المبطن لأن صوفيا لم تواسني في جفاء بيروت معي كما كنتُ أريد، ويبدو أني انتقمتُ منها من دون أشعر. أحياناً نمارسُ انتقاماتٍ لاإرادية في كلامنا من دون أن نعي!

لا أريد أن أتكلم إذاً، المصالحة الجسدية أصبحت حلاً مواتياً فعلاً! تركتها تتناول حبوبها الصغيرة، وعصيراً، قبل أن ألصق فمي بفمها. عرفتُ من تجربة زواجي أن الجنس قيمة سيكولوجية كبرى، ووسيلة تواصل إنساني قبل أن يكون جسدياً فقط. الكثير من الكلام تختصره العناقات المتتالية التي يتطلبها، والكثير من العتب تغسله حميمية التلاصق، وتعتذر عنه مأدبة الرغبة الكبيرة تلك.

استجابت صوفيا من أجلي. لم تبدُ أنها ترغب في ذلك، ولكنها تتصرف بطاعة مقنّعة. شعرتُ نحوها بحبة امتنان مفاجئة، ربيتها لها،

صارت أضخم وأضخم، فجعلته جنساً زوجياً، من دون عزل. اندهشت صوفيا عندما شعرت بذلك، وأحست جوفها مليئاً بالأشقياء الذين تعودت أن تراهم يموتون خارج منطقة خصبها. كنتُ محتاجاً إلى أن أجعل وجه صوفيا مبتهجاً، أحتاج إلى بهجة أُكمل بها بقية الليلة. لا يمكن أن تحبل صوفيا من أول مرة، إنها تستحق بارقة أمل واحدة، واحدة فقط، ليس بعدها شيء.

كان الأمر بالنسبة إليها مثل موافقة ضمنية لم أكن أجهّز لها على مشروع صوفيا في الحمل، ما جعلها تنضح بسرور لم أره هكذا إلا في ليلتنا الأولى أو الثانية على الأكثر، مثلما تنتشي الأرض التي يأتيها المطر لأول مرة، وربما كانت أول مرة يأتيها مطر كهذا بالفعل، وتشعر به وهو يتخلل جسدها، ويسافر حيث مستقرها المكين.

ظلت الليلةَ سعيدة، تتكلم وكأنها استعادت نشاطاً فقدته منذ سنين، وجرّب جسدها اتزاناً كان يتوق إليه منذ نضجه الأول. هل هذا فعلاً أثر ذكورتي عليها؟ أم إنها فقط سعادة نفسية إثر موافقتي على ما أرادت، وما أستأمنها عليه، واستودعها إياه؟

(١١)

جلسنا نتناول عشاءنا آخر الليل وأنا صامت، بينما صوفيا تأكل وهي تتكلم عن كل شيء، وببطء شديد، وعيناها هادئتان، وكأنهما تتكئان على راحة كبيرة تسكن جنبيها. إنها تثرثر جيداً، لا أصدق أنها تتكلم منذ نصف ساعة عن ممثلة عبرت الشاشة لربع دقيقة فقط. صوفيا تلتقط الأشياء المطفأة وتبقيها طويلاً في المكان، تجعل الأيام بطيئة، والأحداث اليومية لا تنتهي.

النسائم التي تمر بشعرها في طريقها إليَّ تحمل رائحة الطائر الذي لا يغني إلا قبل موته. تجلس على هضبة صغيرة من الوسائد الغضة جداً، بعد أن صار جسمها يصرخ في وجه الأشياء بألم دائم، وتبقى بقعة حمراء معلقة لأيام في كل جزء من جلدها يصاب بضربة أو ضغط ما. جلستُ أراقب وجهها وهو يلبس سكينةً شفافة، وفمها اللطيف في حركة المضغ البسيطة، وبصعوبة ظننتُ أني أفهم لماذا تتشبث الفتاة بالأشياء البسيطة وكأنها مصائر صغيرة!

لأن ما يمر بي يعود، وما يمر بها ليس كذلك، مثلما لا نأسى على فوات سيارة أجرة في طريق مزدحم، بقدر ما نصرخ يأساً لذلك في الطرقات المظلمة المهجورة. لقد صارت تصرفات صوفيا اليومية،

غير المدبّرة، تلتصق بي مباشرة، وكأنها تهمسها في أذني، ولا تفعلها أمامي فحسب. سلوكها الذي يتغير كل يوم منذ بدأت تنحدر أسرع في مرضها، كان يبدو لي وكأن الفتاة التي قدّر الله أن تموت شابة، بدأت تختصر كل ما بقي لها من عمر في أيام. إنها تنضج، وتكبر، وتيأس، وتهرم أمامي، وأنا شاهدٌ على ما لم أره من قبل، وقد بدأت شفقتي تتحول إلى بثور، ودمامل، وتنفجر في داخلي، وتوجعني!

عليّ أن أفتح ثقباً كبيراً في السماء إذا أردتُ أن أفهم يوماً معنى أن تموت هذه الفتاة! برغم أن قصة الموت لا تتوقف، مثل جريدة يومية، ولكن أخبارها يجب أن تختلف وإلا اضمحلت دموعنا، ونسينا أننا نستطيع أن نبكي، ونفعل أحزاناً، ونحتقن يومياً بالتراب، والأقدار، وبقية شؤون الحياة!

هل حقاً هي موقنةٌ بهذا الموت؟ صوفيا التي تفوح منها منذ أسبوعين روائح أهل الجنة، هل حقاً أنها وهي تضع قدميها في حجري، وتراقب برامج التلفزيون، يمكن أن تتوقع في أجندتها يوماً خاتماً قريباً كيوم الموت؟ وهل حقاً أن طبيباً ما، أياً كان دينه، وشهادته، استطاع أن يوقِّع على نتائج التحليل الأخير، ويعلن باسم هذا المرض وفاة هذه الزيتونة الشابة مقدماً؟

«الآنسة صوفيا جندول الفاضلة

بناءً على اجتماع لجنة القسم بعد الاطلاع على التحاليل التي قمتم بها مؤخراً، فإن نتائج التحليل المصادَق عليها من قبل اللجنة جاءت:

حالة ميؤوساً منها

أمين اللجنة

د. زياد صفير»

أتساءل بحنق فيلسوف مبتدئ، إن كانت هذه الورقة التي نزعتُها بنفسي من فوق سريرها، وأخفيتها في درج بعيد، بعد أن أقنعتُ صوفيا بذلك، وأقنعتني هي بعدم تمزيقها لأسباب قانونية تختص بشركة التأمين، هذه الورقة المليئة بالدموع الجافة، وبقايا الملح المتيبّس القديم، أتساءل إن كانت كافية لتوضيح هذا الموت؟!

ها هي ما زالت تعيش، واللون الأخضر في عينيها يشبه شجرة، وأصابعها تلتقط كفي بلهفة طفل مبتلّ تستقبله منشفة أمه بعد الاستحمام. إنَّ الحياة الموجودة داخل صوفيا الآن تفوق الحياة الباقية خارجها، وهي أصدق، وأوضح، وأكثر إقبالاً على الله!

أوجعتني عندما اقترحتُ عليها ذات يوم أن نتابع مسلسلاً طويلاً، قالت إنها ستموت قبل أن ينتهي! وضحكَتْ، وأنا اندهشت من مشاعري التي ملأت دلواً في نفسي حتى آخره، وصار ينسكب لأدنى رجّة تُحْدثها عباراتها المتناثرة هنا وهناك، وينسكب منه سائلٌ مجهول الهوية لفرط الأخلاط التي صنعته، ولكن انسكابه في الداخل يشبه غرابة الأسيد... شيء حارق.

حدسٌ ما يلوّح لي أني بدأتُ أجني آلام المُتَع التي مضت في شقة صوفيا. قررتُ في لجة هذه التغيرات التي صارت تتسارع أن أدبر غياباً ما، في الوقت الذي تكاد تتحول فيه صوفيا إلى راديو صغير،

متقلب الموجات، وهي الحالة التي تناسب نفسي النزّاعة إلى التغيير، ولكني أجدني غير واجد تبريراً أمام نفسي أولاً، حتى أبرر لصوفيا أني أحتاج إلى أن أتوقف، ليومين على الأقل!

لم أدبر بالطبع تبريراً صادقاً. كذبتُ، قلتُ إن شؤوناً مالية تخصني معرضة للفشل، وعليّ تسويتها، وسأعود. حشدت لي صوفيا ألف دمعة عندما أخبرتها بذلك. انتكست أمامي، جلست على الأرض، ثم افتعلت إغماءةً عابرة، وبعد ساعات فتحت في وجهي باب صمت رهيب، ثم أصبحت تتجنب النظر إلى وجهي الذي يراودها عن ثقتها بي. يئستُ، قلتُ لها إني لا أدري كيف يمكن أنا أجعلها تصدقني، ولكني سأعود بعد يومين، وسترى!

قالت أخيراً إني لو لم أعد ليلة الاثنين فإنها مضربةٌ عن الدواء والطعام. اتفقنا على وعد ألا تبدأ إضرابها هذا إلا ليلة الاثنين، وأن تعتني بنفسها جيداً حتى ذلك الحين، ولا بأس من أن تزور المستشفى. همستُ لها في أذنها اليسرى: سيعجبني جداً عندما أعود أن أرى وجهكِ متورداً، وجسمكِ أكثر امتلاءً!

وتركتُ شقتها، لا إلى المطار، ولكن إلى الفندق القريب جداً، في مكانٍ ليس فيه إلا أنا، أرتب الأشياء الماضية، وأرشف شيئاً من الألفة، والمعتاد، وأعيد دوزنة النبض الذي تركته ينشز وحده طوال شهرين. رحلتُ عن صوفيا مسافة شارع فقط، لا أكثر، هي التي تظنني وراء الحدود الآن. أردتُ أن أفكر بعمق لا تشتّتني فيه غارات صوفيا، إذا ما كان عليّ أن أعود إليها، أم لا!

وقبل أن أبدأ فعلاً في ممارسة هذا التفكير العميق، التقيتُ صدفة بأصدقاء في الفندق، يقضون إجازتهم، وكانوا قد وصلوا منذ أيام فقط. شعرتُ لما لقيتهم بأني آنستُ وجوه آلهة. اندفعتُ أعانقهم حتى خالجتهم دهشةٌ لفرط سعادتي، ولهذا الاحتفاء الغامض الذي أغدقه عليهم. كنتُ غائباً عن أقربهم مدة ثلاثة أشهر على الأقل، وأنا أشتاق إلى وجوه الأصدقاء القديمة، بقدر ما أبغض وجوههم إذا ألفتها!

سرعان ما اندمجت في برنامج أوقاتهم، وانطلقتُ معهم حيث ينطلقون. كنا نصعد الجبل نهاراً. في الشتاء يصبح للمنتجعات الجبلية سوقٌ رائجة، نلاحق الثلوج التي بدأت تنزل بطفافة على القمم، ونحتفل بمناسبة أي شيء، ونسهر حتى عتبة الليل الأخيرة، ونثمل من الكؤوس الشاهقة، ومن أعناق النساء الدانية علينا في الملاهي الليلية.

لم تكن ظروفاً جديدة عليّ، ولكني أمارسها بشغف لأنها تأخرت في العودة منذ آخر مرة، واحتجتُ إلى أن أعيد تدويرها في نمط حياتي، والرفاق كانوا مؤهلين جداً لجنون فائق كهذا الذي تبعتهم فيه قبل أن أقودهم إليه. كنتُ أنفق كأكثرهم مالاً، وأكاد أدفع حتى النساء اللواتي يتعالقون بهنّ كل ليلة. كنتُ أعيش نشوة شريانٍ مهجور التصق بنفسه، قبل أن تندفع الدماء فيه فجأة، بعد يأسٍ من صوت النبضات.

(١٢)

مضت تسعة أيام، وصوفيا جرسٌ خافتٌ لا يدق في انتباهي إلا إذا أفقت من النوم، مشوَّشاً بضباب الخمر، وكثيراً ما كان كوب القهوة يضاعف دقاته، ويزيدها وضوحاً، مثلما يعالج الزيت مفاصل الأبواب السالية. كأنني قررتُ ألا أعود من دون أن أضطر إلى توقيع هذا القرار رسمياً في ردهة العقل. إنني أشعر بأنها امرأة مختلفة جداً الآن، كيف لي أن أعالج وجهها إذا عدت، وكيف لي أن أخترق كل ذلك العتب المتراكم بلا شك في عينيها مثل الثلوج التي تتراكم على مداخل البيوت!

ذلك المساء كنتُ أشمُّ رائحتها أكثر من أي شيء. ثماني ليال من الصخب المتكرر مع أصدقائي الأربعة، يمارسون المزاج نفسه كل ليلة، وهذا يجعلني مضطراً إلى مفارقتهم، ومشتاقاً إلى العودة إلى صوفيا. كم تراه بلغ حجم انتظارها؟ كم حدقتْ في الباب، والشرفة، وألهبت هاتفي المطفأ، أم أنها امتنعت عن الأكل فعلاً، ستسقط في إغمائها إذاً، وتطعمها الممرضة من أنبوب التغذية، لا خوف عليها.

ربما يكون في شقتها رجلٌ آخر الآن!

لا أنكر أن هذا الخاطر دقَّني فجأة، وأنا مثل مسمارٍ لم ينتبه إلا بعد أن وجد نفسه مغموساً تماماً في الجدار. غريبةٌ هذه الرعدة التي يبّست جلدي بضع ثوان، وجعلتني أحدق في القهوة وكأنها بئرٌ سحيقة، قبل أن تسقط من عيني نظرة تخاذل تملأ الطاولة!

لم يكن غريباً أن أشعر بغيرة مفاجئة، وإن لم أكن أحبها. إن للجسد كبرياءه أيضاً، ولكن اللامعقول هو ألا تخطر لي مثل هذه الفكرة إلا بعد تسعة أيام كاملة من مغادرتي شقتَها!

ماذا كنت؟ حتى الأنبياء غادروا أقوامهم وهم يتوجسون من ردتهم! والأزواج الكهول تراودهم الشكوك إزاء زوجاتهم العجائز، وأنا أترك ورائي امرأةً لا تربطني بها إلا صلة الشهرين المائلين بسرعة، وأعرف تماماً مقاس رغباتها، والحالة الوجودية المحرجة التي تجعلها تسن القوانين وتمحوها في اليوم عشرات المرات، ولا تبالي. لماذا لم أفكر في هذا، هل كنت شديد الثقة أم اللامبالاة!

ولذلك كنتُ أراقب نافذتها عند عدتُ قبل أن أدخل مبنى شقتها، وألصق أذني بالباب قبل أن أفتحه بالمفتاح الذي معي وألج. مررتُ بكل غرف الشقة الثلاث لأتأكد من أن قدمَي رجل آخر لم تطآ المكان، قبل أن أمد عنقي بقدر الاستطالة التي أستطيعها إلى داخل غرفة نومها لأرى إذا ما كانت تحتضنه وينامان معاً أم لا، ولكن لا شيء من ظنوني تحقق، كان كل شيء كما تركته تماماً. وجدتها نائمة، ولحافها الثقيل قائمٌ فوق جسمها مثل هرمٍ صغير.

من أجل هذا انتظرتُ حتى الليل لأعود، إما أن أجدهما نائمين

معاً فأرحل بصمت ولا أعود أبداً، أو أجدها نائمة وحدها، فأوفر على نفسي عتاب المفاجأة. إذا جاء موقفها الأول عنيفاً فمن الصعب أن تستبدله حتى لو أرادت، عليّ أن أنتبه إلى الموقف الأول، فهو الذي يحدد كل شيء.

خلعتُ ملابسي، وقاسمتها السرير واللحاف، واثقاً من أنها لا تستيقظ بسهولة لأنها لا تنام إلا بمنوم ثقيل. اقتربتُ من وجهها، التهمتُ بنظراتي الملامح التي يتيحها لي الضوء الخافت القادم من الصالة، وجفنيها المطبقين المنتهيين برمشين منحنيين تلامس أطرافهما الوجنة أو تقترب. سحبتُ يدها واحتضنتها. فكرتُ في أن استيقاظها على منظر يدي وهي تحتضن كفها سيوفر عليّ ثلاثة أرباع الحنق!

صباحاً، شعرتُ بها وهي تكاد تستيقظ، ولكني قررتُ التظاهر بالنوم، وتأكدتُ من أن كفها ما زال في يدي. شعرتُ بكل ما فعلته، أوجَفَتْ شاهقة، ثم ارتجفت يدها وهي في يدي، رفعت رأسها ولمست بيدها الأخرى جبيني وخدي وكأنها تتأكد من أنه ليس حلماً، ثم بدأت أشعر بالهزات الخفيفة التي يطلقها جسدٌ يبكي، وبعد ذلك النشقات المتتابعة من أنف ملأته الدموع، وبدأ يختم بكاءه.

دَعمَت رأسي النائم على الفراش مباشرة بوسادة أخرى، تاركةً يدها في يدي كما كانت، ثم اقتربت مني، وراحت تقبل أصابعي واحدة تلو الأخرى، ومن آخر حلقها تصدر أنات طفيفة، ثم دسّت يدها تحت قميصي وراحت تتحسس صدري بلهفة أمٍّ عمياء، قبل أن تسند رأسها إليه، وشعرتُ برطوبة دموعها تبلل قميصي وعنقي.

افتعلتُ بوادر الاستيقاظ، بعد أن رسمتُ خططاً متنوعة لمواجهة مواقفها المحتملة. كنتُ قد قررتُ أن أقول لها عبارة واحدة: «غبتُ لسببٍ كبير، لا أستطيع أن أقوله لكِ!»، وبهذا أجعلها هي تنتقي من مساحة ظنونها العذر الكافي لمسح عتبها عليّ، وتُقنع نفسها به، وأظل أنا مثيراً للشفقة والتعاطف بدلاً من الغضب والكره، نظير السبب الكبير الذي أرهقني طوال الأيام التسعة الفائتة!

ولكن وجهها كان مكللاً بالرضى عندما التقت عينانا، كأن سعادتها بعودتي أفقدتها ذاكرة الانتظار كلياً. لم أقل لها عبارتي المعَدة بعناية إلا بعد ساعات، وقد سقطت ضمن العبارات ولم تُحدث أي أثرٍ ما. لقد جُنّت صوفيا بلا ريب. لا يمكن أن تحتاج امرأةٌ إلى رجل حدَّ هذا الغفران الكبير، وقريباً من ذلك الموت الموحش!

رتقت صوفيا فتق انتظارها ببساطة. ألصقت يوم رحيلي بيوم عودتي، متجاهلةً فجوة الأيام التسعة ما بينهما تماماً. كدتُ أنسى أنا نفسي أنني كنتُ غائباً، مارسنا يوماً عادياً، ومن بعده كرّت أيامٌ أخرى، كسابقاتها، لا شيء يتغير، إلا محاولات أكثر من صوفيا لجعل إقامتي أكثر متعة حتى لا تتعرض لغياب جديد. ليس عندي إلا تفسيرٌ واحد لما تفعله، وهو أن صوفيا منذ البدء بررت لي غيابي وحدها، من دون أن أحتاج إلى ذلك، وأن وهنها وكسلها في الأيام الأخيرة بسبب المرض أضجراني، ولا ريب في أني مللتُ، فغبتُ. كان تبريرها من الطيبة والاتساع بحيث يكفيني حتى لو لم أعد، ولهذا جاءت عودتي معروفاً كبيراً بالنسبة إليها. لقد حقق لي غيابي مكاسب كثيرة!

(١٣)

هذه المرة كانت صوفيا جسداً ثلجياً تماماً. آلمتني هذه البرودة الشاحبة وهي تتلامس مع جلدي. لم تكن تشعر بالكثير، إحساسها صار خافتاً، بليداً، بطيئاً مثل رادار قديم فقد الطاقة. لم يكن ثمة داع للجنس ما دامت في هذه الحالة من العياء، ولكن فكرة الحمل القديمة التي صارت تلازمها كهاجس ملحّ هي التي تدعوها إلى ذلك، وإلى الإقبال عليّ في كل وقت خالٍ، وكأن الحياة اختصرت نفسها فيّ أنا، ولم تعد ترى رمزاً متحركاً يمثل ما سترحل عنه، غيري!

موتها المقترب جعلها تحبني في أيام حباً كان يحتاج إلى سنواتٍ ليصبح بهذا الحجم. هذه حالةٌ نادرةٌ فعلاً من الحب! ولكنني لأول مرة أشعر بأني أمارس الجنس بدافع الإشفاق! وأحاول في هذا الأيام المتسارعة التي أقضيها معها أن أفسر هذا النمط منه، وأضعه في القالب الذي أتفاعل به بشكل لا يجعلني أبدو وكأني أشعر بالملل، حتى لا تحزن صوفيا.

انتهينا، فنامت هي على الفور، ولم تشعر بالفحيح الذي تركتْه أنفاسُها في فمي. غطيتُ كتفيها بهدوء، وأغلقتُ النافذة المفتوحة، وخرجتُ من الغرفة وأنا أعلكُ في فمي كرات الغثيان، وأقاوم في

داخلي اندفاع حالة من عدم التوازن، حدثتني عنها نفسي كثيراً، وقالت إني أزجُّ بنفسي في أوساطها دائماً، ولا أتوب!

ما الذي جاء بي إلى بيروت لأداوي رغبة امرأة ميتة! ولماذا أمارس هذه المداواة بما يشبه الذنب المكتوم، وهو يترنح في داخلي من فرط التجاهل الذي أرميه به، ويضرب رأسه في جدران ضميري، ولا يكاد يصلني أي صدى!

ولماذا أنا متقلب المزاج هكذا مثل طفل! يوماً أشعر بأني سعيدٌ جداً بصوفيا، أحبها مثل نبوءة فرح، وأشتهيها مثل دكان حلوى، وأظنني قادراً على المكوث معها أشهراً أخرى من دون مبرر للعودة، وأحياناً أشعر بانقباض متزايد، ونفور من مبالغتها في الالتصاق بي، والنوم على صدري، وأحس بأن كلمات الغزل تخرج مني جافة كقطع الخشب، وتخرج منها ثقيلة كدواء السعال! وأود لو ينتهي كل شيء، وأبتعد، أو آخذ هدنة أخرى من هذه المعركة الإنسانية التي أخوضها، ولا أدري ماذا سأغنم منها، وماذا سأخسر!

لو لم أتخيل حياتي دائماً خالية من أي موقف درامي نبيل أتحدث عنه في ما بعد، لربما لم أشعر بحاجتي الآن إلى خلق مثل هذا الموقف مع صوفيا. ربما هذا هو السبب الذي يدعوني إلى أن أمكث معها أكثر، وأجدها فرصة سانحة لإضافة نجمة وحيدة في حياتي الخاوية. هذا هو السبب الغالب، إنني أكاد أعترف بهذا!

جلستُ على الأريكة في الصالة، ورحت أدخن كثيراً على غير عادتي. سحبتُ شعرةً بنيّةً من شعر غالية كانت ملتفة على عنقي،

وكورتها، ورميتها بعيداً. أشعر بالغثيان فعلاً، وبالضيق. ليتني أستطيع أن أتصل بصديق ما، لولا أنهم نائمون حتماً الآن، نائمون، ولا يدرون أني أقيم في شقة امرأةٍ على شفا موت. أشعر بالملل، وبالرغبة في الخروج من المكان بأي شكل، وأحس بأن ضميري تحوّل إلى جمرة كبيرة، تتأجج كلما ازدادت رغبتي في الانصراف. كم أشعر بالضِّيق!

أدرتُ موسيقى هادئة تديرها صوفيا دائماً عندما نجلس على هذه الأريكة، وقررتُ أن أسترخي حتى أزيل هذا الضِّيق تدريجياً من أعصابي، مستعيناً بعلبة بيرة صغيرة، ربما تكفي، وإلا استعنتُ بأخرى. أشعلتُ سيجارة جديدة، ورحتُ أداعب هاتفي بحثاً عن صديق ربما أتجاذب معه كلاماً ليلياً متأخراً، ولكن أسماءهم جميعاً كانت تبدو لي خارج المنطقة التي أحتاج إليهم فيها تماماً!

قال لي أحد أصدقائي مرةً «الهروب من مصدر الضيق أصعب من مواجهته دائماً! لذلك، لا تتخذ الحل الأصعب أبداً!». كنتُ أسأله عن الكيفية بيأس، ويقول: «حاصر ضيقك! اعتبر حالتك النفسية مشكلة مادية بحتة، يجب أن تقلّبها بين يديك، وتتأمل سبب عطبها، أو مصدر الأزيز الذي يزعجك منها! هذه المحاولة تجعلك تدريجياً أكثر مهارة في السيطرة على كوامن كآبتك!».

ماذا يضايقني الآن؟ الملل؟!

فقط؟!!

ثمة امرأة يخرّب السرطان دمها كله! وعندها شهادة بالموت

خلال أسابيع، وهي تنام في الغرفة، وأنا أنكش الليل كله هنا، لأني أشعر بالملل، ليس إلا!

هل هو الملل وحده فعلاً، أم إنها معادلة نفسية معقدة تحرضها على التهيج ظروف رتيبة كهذه التي أنا فيها!

أياً يكن، فكم حجم مشكلتي إزاء مشكلة صوفيا الآن! قريباً ربما تفلتُ منها حياتها كلها، بينما أنا أعود من حيث جئت، وعندي مشاريع عريضة في حياتي التي لا أدري متى ستنتهي!

يا الله، يا إلهي الكبير، هل هي مشكلتي أنا التافهة، أم إنها مشكلتها هي التي جعلتَها أنت أكبر مما يجب!

قرأتُ عندما كنتُ صغيراً «سُنة الحياة أن يسيِّر الخالق النباتَ بالتكوين، والحيوانَ بالغريزة، والإنسانَ بالتكليف». أعجبتني المنطقية الواضحة آنذاك، لأنها تناسب عقلي النامي الصغير، قبل أن أكبر، وأسترجع الفكرة، فأجد صعوبةً بالغة في قولبتها منطقياً مثلما فعلتُ في الصِّغر!

لأننا مكلّفون! أنفق علينا التاريخ الكثير، من دون جدوى كبيرة! آلاف الأنبياء بعثهم، وتحمل رواتبهم، ومعجزاتهم، وكلماتهم، وكلهم عادوا بصداع كبير، ونتائج متشابهة، وبقيت الحال كما كانت. لم يكن يجدر بالإنسان أن يكون مكلَّفاً!

صوفيا التي تنام الآن هناك، شقيّة حتماً! وإذا كان الحكم التكليفي يقضي بأن وجودي في شقتها، وعلى سريرها، وفوق جسمها، يُعَد خرقاً عنيفاً له، من وجهة نظر الدين وحده، ولكن أليس

لها أن تبرر ذلك بأنها فعلته بمقتضى الحكم الغريزي؟ وإذا كان كونها إنسانةً يمنعها من الدخول تحت الحكم الغريزي الخاصّ بالحيوانات فقط، فلماذا إذاً تموت صوفيا، بمقتضى الحكم التكويني لجسدها المريض، برغم أن الحكم التكويني خاص بالنبات؟!

قلّبتُ هذا الهاجس في رأسي طويلاً، قبل أن أشعر برغبة في تدوينه، فكتبته في ورقةٍ صغيرة، ألقيتُ بها في حقيبتي. حتى الآن أكون قد دونتُ عن صوفيا ثلاث صفحات ونصف، هذا ما بقي منها. اتجهتُ إلى الشرفة، وقد زال الضِّيق على ما يبدو، بفضل صديقي القديم، أو بفضل علبتَي البيرة، لا أدري! أو ربما بفضل نجاحي في تشكيل هاجس جديد بالكتابة!

ماذا كنتُ لأفعل في الرياض الآن! لا عمل ولا حتى هواية، والخياراتُ التي هناك محدودة بالنسبة إلى مهووس مثلي، والسنوات كانت تكفي لممارسة أغلبها. فكرتُ مرةً في أن أرتكب جنحة أدخل بها السجن، لأجرب، ولكن خوفي الكبير من القيود غلب نزقي الصغير للتجربة الجديدة. اكتفيتُ ليلتها بتعمد قطع إشارة ضوئية ليلة الأربعاء، أقضي بها ليلتين في حجز إدارة المرور، وخرجتُ راضياً!

فكرتُ في كل المدن التي زرتها من قبل، ماذا كنتُ لأفعل لو كنتُ فيها الآن! أشعر بقصور الإجابات، ونفادها، وتسربها من يدي مثل رملٍ تائه. الآن أنا لا أعاني من الآخر بقدر ما أعاني من نفسي. [illegible]ي الآن هو المُر وليست مشارب الحياة، ووجهي هو الصعب، وليست معادلات الدنيا. أعرف أن ما سأفعله في الأيام القادمة هو فقط ما سيحدد أيهما سيسبق إلى افتراسي، الكآبة أم الجنون!

غريبٌ أن أجلس في شقة من بيروت، موقناً باقتراب عطبٍ نفسيّ ما، أراقبه وهو يبعث إليّ عرضاً تلو آخر. ربما يجدر بي أن أقرأ عنهما قليلاً على الأقل، أن أعرف كيف سأكون، ومتى سأخرج. رحماك يا الله، لماذا تسرِّبُ إلي هذا الحدس المضحك بما ستحيقه بي عما قريب!

بقائي مع صوفيا لم يعد معلقاً إلا بخيط وحيد: شعوري المكين بأن حاجتها إلي لم تعد حاجةً عادية. أصبحتُ جزءاً من مرضها، وأنا خائفٌ من اتخاذ قرار متعجرف أثناء ممارسة هذا الدور الحرج. عليّ أن أقاوم ما لم أقاومه منذ طفولتي، شخصيتي نفسها، من أجل صوفيا، وربما كان في ذلك علاج لي أنا أيضاً، من حيث لا أعلم!

أستطيع أن أتدخل في الأمور هنا. ربما أدخل تعديلاتٍ على النمط الذي صنعته صوفيا في الشقة منذ البداية، وظل سارياً كقانون لم أناقشه معها. لماذا لا أدعو أحدهم مثلاً؟ أصدقاء، أو أي رفقة يمكن أن نجلس معاً، ونتحاور، ونحتفل، وتتغير الوجوه على الأقل. على صوفيا أن تتنازل قليلاً عن بعض ملامح الصورة التامة التي تخيلتها، وسعت إلى اختراعها، إذا كانت تريد بقائي!

ربما ندعو شاباً وفتاة للإقامة معنا هنا. هناك غرفة زائدة لم تُستخدم بعد، أي زوجين من معارف صوفيا، أو معارفي، يمكننا أن نشرح لهما الظروف، ومستوى غرابتها، ونقنعهما بالبقاء من أجل تجديد المكان، والكلام، والأحداث. ثمة أساليب كثيرة يمكنني استغلالها لمساعدتي على البقاء أطول، أساليب بسيطة، غير مقنعة، وموقتة، ولكنها تفرز وقتاً أطول، وهذا ما أريده.

وقفتُ أتأمل فجر بيروت المقبل بعد قليل، وأدخن آخر سيجارة، وأنفث دخانها حلقاتٍ في جبين البحر. كنت أرى بضعة أشخاصٍ يتحلقون حول بعضهم، ويدخنون أراجيلهم بهدوء، وآخرين كانوا يلعبون النرد على طاولةٍ بسيطة، وبضعة مشاةٍ قلائل، ومتشردين نائمين على الكراسي الحجرية، وفي الأفق هناك، تراءت أطياف مئذنةٍ وصليب، يراقبان رعاياهما في هذا الليل الأخير.

(١٤)

في غرفة صوفيا رجلا إسعاف، والممرضة، والجارة العجوز التي راحت ترسم الصليب على صدرها بيدٍ مرتعشة، وتتمتم بصلواتٍ لا أسمعها، وأنا أفركُ عينيَّ من كسل النوم الذي حلّق بعيداً بعد أن أفزعته الدهشة، وأراقبُ الرجلين وهما يرممان أنفاس صوفيا الغائبة بجهاز التنفس، والممرضة تجسُّ النبض، ثم بدأ أحد الرجلين يُخلعها ملابسها ببرود.

وعلى المشهد بأكمله، كانت موسيقى هادئة تنسحبُ من جهاز التسجيل الكبير في وسط الغرفة! بدا لي وكأني أتأملهم من وراء جدار زجاجي، أرى ما يفعلون ولا أسمع لهم صوتاً. غمزتُ الممرضة باستفهامٍ قلِق، فزمّت شفتيها، وهزّت رأسها تعبيراً عن عدم الدراية، وعادت تتابع عمل الرجلين.

سقطت صوفيا في غيبوبة. ليلة أمس كنت أراها تترنح، مثل كهلٍ يثمل للمرة الأولى في حياته. كانت تقول كلاماً متتابعاً، غريباً، فاقد الصلة بالنقاش، وتُفرغ على وجهي نظراتٍ ذاهلة، غير متوازنة، وتُكثر من الذهاب إلى الحمام، وتضطجع على الأريكة في أوضاع غريبة، حتى كادت تنام على الأرض، واضعةً قدميها في حجري!

وقبل أن تنام تعلّقت عيناها في السقف فجأة، وشدّت يدها على الجهة اليسرى من بطنها، وراحت شفتاها ترتجفان بشدة، قبل أن تطلق صرخة ألمٍ كبيرة خلعت قلبي خلعاً. جثوتُ على ركبتي وأنا مأخوذٌ بهلع كبيرٍ مما أرى، وأشعر بأن رأسي يدور مثل مقلاع طفل، وتقافزت دمعاتٌ من عينيها وهي تعضُّ على طرف الأريكة، وتدفنُ صرختها فيها.

هدأت هجمة الألم بعد دقائق، وتركتني لتدخل غرفتها، حتى إذا تأخرت وهرعتُ لأطمأن عليها، وجدتها نائمةً على السرير، ونصف جسدها مدليً خارجه، وقد تحولت إلى كتلةٍ معجونةٍ من قوى خائرة، ووجهها كأنما يخاطب العدم في بعدٍ آخر.

كنتُ أخشى أن ألمسها فيعاودها الألم. حاولت أن أسحبها قليلاً لتستوي على السرير خشية أن تسقط منه، ففتحت عينيها فجأةً، ثم حبت حبواً على السرير، وارتمت عليه ارتماءً، فأسدلتُ عليها الغطاء بدوري، وذهبتُ لأنام على الأريكة، وقد تخالطت عليّ الصور الغريبة التي رسمها الألم على وجهها. نصف ساعة من تقلصات الوجه، وجحوظ العينين، والصرخات الغير منتظمة، يا الله، كم هذا مرعب ومخيف!

سقطت في غيبوبتها أثناء ذلك النوم. انتبهت الممرضة إلى ذلك بعد أن حركت جفنها فجراً لتنظر إلى البؤبؤ خلفه. على الفور، راحت تنفذ الوصية التي استأجرتها صوفيا من أجلها. فتحت النافذة، واستدعت الإسعاف، وأدارت الموسيقى الهادئة.

أوصتها صوفيا أيضاً بألا تُحمَل إلى المستشفى مهما تدهورت حالتها، لأنه المستشفى هو الذي قرر عليها هذا الموت، ولن يفعل شيئاً إزاءه، وهي استأجرت هذه الشقة لتموت فيها، وليس على سريرٍ مهملٍ في مكانٍ غريب. أرادت أن تموت بهدوء، وألا تكون هناك أي ضجة، وأن تدار الموسيقى لتتصل بأنفاسها الأخيرة، وتساعد روحها على الانسلال إلى الأعلى.

انتظمت أنفاسها قليلاً، ولكنها لم تفق! عاد رجلا الإسعاف يجمعان أدواتهما، وهما يتحدثان مع الممرضة، وأنا أقترب من صوفيا بحذر، وأتطلع إلى وجهها بحيرة شديدة، باحثاً عن إشارة أمل أنها نائمة ليس إلا، وستستيقظ قريباً، ولكن وجهها كان شاحباً كفزّاعة، وملامحها لا تنطق أبداً!

غادر الرجلان، والجارة العجوز أيضاً، وعادت الممرضة لترتب مجموعةً من الحبوب في علبة كبيرة مقسمة إلى مربعات تضع في كل منها عدة كبسولات مختلفة، وصوفيا تبدو غارقةً في بُعد آخر من الحياة، وأنا أدور في الغرفة ولا أدري ماذا أفعل!

هل ستفيق؟

وإذا لم تفق؟ هل انتهى دوري؟!

رحتُ ألملم ملابسي، وأحشرها في الحقيبة، وعيناي مفتوحتان على حيرة طفحت ثم تجمدت في الحدقتين، بينما ظلّت صوفيا غارقةً في غيبوبتها، لا تدري ماذا أفعل، تماماً مثلي، لا أدري ماذا أفعل! وقضيتُ بقية اليوم أدور في الشقة مثل ولد خائف، متوتر جداً، أقرأ

فلا أفهم، وأفتح التلفاز فلا أنتبه، وأشعر بأن أعصابي منهكة تماماً، وعاجزة عن الانضباط!

أفاقت صوفيا مساءً! كنتُ أحتاج إلى أن تفيق، أحتاج إلى أن أجد في وجهها، وكلامها، شيئاً يفسر لي دوري المنتظر، وماذا يجب أن يكون؟ وماذا سيحدث؟ بدأ الأمر يأخذ منعطفاً جدياً، لم أستعد له أبداً، وحتى لو استعددتُ له، لن أدري ماذا سأفعل!

راحت تحدثني بأنصاف الكلمات، والحروف المبهمة الضائعة. تنظر إليّ وتتكلم كلاماً يخص الممرضة، والعكس. الجمل التامة كانت نادرة جداً في كلامها. قالت إنها تموت، وإنها تحبني، وشتمت أشخاصاً لا أعرفهم، وبكت وهي تنادي أسماء أخرى، وتستحضر أرواح مشاهير وموتى منذ عقود. وعندما بدأت صرخاتها تعلو، سألتها الممرضة إن كانت تحتاج إلى إبرة مهدئة، فأومأت صوفيا بالإيجاب، وفي عينيها خنوع بائس، فحقنتها الممرضة، وتركتها تعود إلى النوم.

في الصباح التالي، عاد رجلا الإسعاف، ومعهما طبيب، ودارت الموسيقى الهادئة نفسها التي ترافق عملهم من جس وفحص وربط الأنابيب وحلها، وصوفيا المسافرة في برزخَي الغيبوبة واليقظة لم تعد تشعر بأحد، ولم تعد تنادي أحداً. سكن جسمها سكوناً تاماً، فلا يحركها إلا ألم حاد يدفعها إلى أن تتأوه آهاتٍ عميقةً مكتومة كأنها أصوات البُوم، وشحب وجهها كثيراً، وفقد شعرها البني حيويته، وتساقط على جبينها ومخدتها مثل أسلاكٍ مهملة!

مرّت ثلاثة أيام على هذه الحال، من دون تحسن يذكر. وجدتُ أنها لم تعد تشعر بي تماماً، أكملتُ حزم حقيبتي، وتركتُ شقتها، من دون أن تعي طبعاً، وأخذتُ معي رقم هاتف الممرضة، وأخبرتها أني سأعود بين حين وآخر، وأن مشاعري لا تحتمل أن أرى صوفيا في هذه الحال، وأخشى أن أضرها أكثر مما أنفعها.

لم تُزد الممرضة عن بضع إيماءاتٍ توحي لي بها أنها تتفهم وضعي. هي في الخمسين تقريباً، وربما تفهمُ أني قد أقمت قرابة شهرين في شقة امرأة تشرف على الموت، وكنتُ صبوراً جداً، ومتعاطفاً، ولكني لا أستطيع أن أقيم مع امرأة بدأت تموت فعلاً!

أقمتُ في فندق، ريثما يتهيّأ لي حجز على طائرة الرياض، وكان الشتاء قد بدأ يؤدي عمله بجدية كبيرة فوق بيروت، وراحت الأمطار تهطل بغزارة.

كانت صوفيا ترافقني في الشوارع مثل روح كبيرة معلقة بين السماء والأرض، أينما اتجهت أجدْها تطالعني من فوق، وعيناها تلبسان الوشاح البارد الذي تلبسه أعين الموتى، وشعرها يتطاير في حركةٍ مستمرة مثل ميدوزا طيبة. كنتُ أحياناً أكاد أقسم إنها واضحة في السماء مثل سحابة، وإن أهل بيروت لا شك يرونها مثلي، ويعجَبون من هذه المرأة التي تعلقت فوق رؤوسهم مثل آلهة الأولمب.

ولكنها تراقبني وحدي. كلما التفتُّ إلى امرأةٍ جميلةٍ تداعب طفلها كانت صوفيا ترميني بابتسامةٍ ساخرة! وإذا دخنتُ في شرفة الفندق الذي أخذته في الشارع نفسه وجدتُ شقتها تضيء من بعيد

كأنها معبد مجوس، وإذا شربتُ قهوةً في مقهى ما وجدتها مقوّسةً في الدوائر، وشعرها البني يملأ الفنجان، ويحتكر رائحته وقطراته.

هل يجب أن أمكث في بيروت لأراقب طقوس رحيل إنسان جميل؟ وكيف يستقطبُ جسمها ذو النمش المشع روائحَ الموت، وينفث أنفاس الحياة! لا أستطيع، أنا أعرف أن هذه الأوقات تستفزُّ كآبتي، وتطلقها بالطاقة القصوى، ولا شك في أن صوفيا يوم تموتُ موتها الرومانسي الذي حلمَت به، لن أكون ذلك الفارس الذي يقبل شفتيها الميتتين، بل سأذرع شقتها مثل حصان مذعور، ويشتعل في داخلي الكثير من الأغصان الجافة التي تنتظر النار منذ أحزانٍ طويلة.

عذراً، يا صوفيا الجميلة، أنا لا أستطيع! ليس هذا ضمن اتفاقنا الضمني الذي وقعناه معاً أول ما وصلتُ إليكِ، ولكننا كنا نعلم أن الأيام الأخيرة إذا كانت، ستكون صعبة، وإلا لما جعلناه اتفاقاً ضمنياً. كنتِ تشعرين ربما بأنني لن أتحمّل، مثلما كنتُ أشعر أنا بأنكِ لن تموتي، وأني لا بد مودّعكِ يوماً وعائدٌ إلى بلادي. كانت هناك احتمالاتٌ كثيرة، وأنا الآن أنفذ أحدها!

حبستُ نفسي في الغرفة حتى جاء موعد السفر. هاتفني موظف خطوط الطيران معلناً اكتمال خذلاني لورود بيروت كلها، ولم تكن الأشياء تبدو حزينةً لذلك، بقدر ما كانت ترمقني بامتعاضٍ ساخر، وكأنها اعتادت أن ترى ما تراه الآن من الوجوه الغريبة، النظرة الساخرة نفسها التي نراها في وجه كهل مشلول، كان يعلم ما سيكون، ولم يقل!

كان لبيروت وهي تبتعد ملامح مزدوجة، نصفها لا يريد أن يعلّق على رحيلي، ولا يلوح لي! ونصفها الآخر يومئ إلى صوفيا في أثير غيبوبتها بأنه لم يكن يحسن بها أن تجلب غريباً ليرعاها، فبيروت ترعى أحزانها وأحزان أبنائها جيداً. كنتُ أشعر وأنا أغلق نافذة الطائرة المربعة تلك، بأن المدينة كلها، تمارس كبرياء جماعياً، ولا ترغب في رؤيتي مرةً أخرى!

(١٥)

مضت أيامٌ خشبيةٌ جداً مذاك. . .

تركت لي صوفيا قصة غريبة بالنسبة إلي، كأن تفاصيلها مشغولة بعناية، بيد إله عليم، تركها لي على مرمى قدَر محكم جداً، لا يمكن مراوغته، ولا تفاديه، عكس أي قصة أخرى عائمة في حياتي مثل سفينة شحن، متزنة فوق أكثر من تبرير.

توقيعها لا يزال مرتبكاً فوق هضبة صدري، ودقات الذاكرة قاسية جداً. إنه قدَر محكم، أستطيع أن أناقشه خمسة آلاف من مرة دون أن يبلى. أستطيع أن أتكلمه ولا أسكت، وأفكر فيه ولا أغفو، وأركض به ولا أتعب، وأكتبه في أوراق ذكرياتي ولا أضع التواريخ بالضرورة لأنها ثابتة! حتى التفاصيل الصغيرة كانت حاسمة مثل التفاصيل الكبيرة، كل شيء لعب دوره بحذق كبير، وأستطاع أن يبعثرني تماماً حتى آخر يوم!

لقد صحّ حدسي عندما شعرتُ بأن مكوثي مدةً أطول بجوارها سيجعلني أدفع ثمنه يوماً صعباً من ذاكرتي، وعرفتُ أن هذا الثمن المؤجَّل ربما يفيض عن قدرتي على الدفع، أو قدرتي على الدمع،

وربما أصبح مديناً بهموم لا علاقة لي بها، ولا قدرة لي عليها، أنا الذي كان عندي أصلاً امرأةٌ تعيش برزخها الأول في صندوق حياتي السابقة، وعندي تفاصيل لم أناقشها مع نفسي بعد، فماذا كان الداعي لهذا الموت المزدوج إذاً!

كثيراً فكرتُ في اليوم الذي تركتُ فيه شقة صوفيا وهي تصارع أقدار الموت الواضحة وحدها. لم أجرؤ على البحث عن صديق يساعدني على ترتيب الأسئلة، وتصنيف ذلك التصرف أياً كان، لم أجرؤ، ولم أحتمل! قلتُ لنفسي: بما أنها فقدت الوعي، فالحالة كلها أصبحت تخصني وحدي، والأبعاد مقصورةٌ عليّ، ولا جدوى من مناقشة الآخرين، فطواني صمتي، وأقفلتُ على صوفيا في صومعة العقل، ولم أعقّب.

لذلك هي الأيام التي أنا فيها الآن خشبيّة الشكل، جافة، وخالية من الحياة، وقابلة للاشتعال في أي ومضة حنين. إنها أيامٌ من النوع الذي نكبر بها أكثر من حجمها الزمني من العمر، أيامٌ لا تغادر الجسد إلا بقطعةٍ من الأسئلة، وقطعة أخرى من الكذب!

هكذا أنا، منذ وصلتُ إلى مطار الرياض عائداً بعد مسافة من العيش في ثقبٍ وهمي لم أفهمه، منذ دخلتُ بيتي، واستقبلت عتاب بضعة أقارب على جهاز التسجيل في الهاتف، منذ أصبحتُ أقضي أياماً طويلة وحدي في الغرفة، من دون أن أرى حتى أصدقائي.

منذ صرتُ أفعل كل طقوس الحزن، برغم أني لست حزيناً!!

كنتُ أنتظر فقط! أعرف أن كل شمسٍ تغرب يقضم الموت من

صوفيا أكثر. أعرف أني في الرياض ضد رغبة بيروت البكماء! أعرف أني خالفتُ كل أنظمة السير في تلك المدينة العتيقة، وعكستُ حتى تيار دمائي نفسه! وعدتُ هارباً من كآبة محتملة، من تعب عابر قد يحدثُ في بقعة من الزمن، بينما صوفيا لم يعد لها في الأرض موضع أيام!

شهرٌ في الرياض ولم أفعل شيئاً. ما زلتُ ساكناً مثل جثة في إناء فورمالين، لا أتحرك، لا أخرج، لا أمارس أي فعل إلا في حدوده الدنيا. كنتُ أشعر بأن أي نشاط زائد في الحركة هو خرقٌ هائل لقداسة الموت الذي يقتربُ من صوفيا، وما دمتُ قد هربتُ منه وهو قريب، فلا بد من أن أقدسه جيداً وقد ابتعدَ!

في هذا السكون الذي اتخذته، خفتُ من كآبة مثل تلك التي رافقت أيام زواجي الأخيرة. ربما لا أظل جميلاً أمام نفسي، بعد أن خذلتُ رغبة فتاة تموت، والموتى رغباتهم كوصايا الأنبياء، يبقى صداها زمناً في النفس. ربما تتحول صوفيا إلى كائن هائل يسكن عظامي، ويحرمني من كل النساء. كل أصناف الحزن هنا، محتملة!

كنتُ أهاتف الممرضة كل يوم لأسأل عن صوفيا، كل يوم، وفي أيام كثيرة كانت إجاباتها لا تختلف. إن صوفيا لا تفيق إلا ساعاتٍ قليلة، تكون فيها دائخة، واهنة، وقد تقضي أياماً متتالية من دون أن تفعل، ولذلك كانت الإجابة الغالبة أنها في النوم كما تقول الممرضة، وليس لديها المزيد من التفاصيل، ولم تكن تهتم حتى بتزويدي بها.

- هل تسأل عني؟

- لا، ما بتوعى على حدا.

ولو أنها ما زالت تعي، وتشعر بغيابي، لربما وجدتُ نفسي منقاداً مرةً أخرى إلى بيروت، من دون خيار! لقد استيقظ في صدري واعظٌ كبير، ولا زال يحول كل الأشياء التي أقرأها، أو أسمعها، أو أتعرّض لها، إلى معادلة أخلاقية تجعلني دائماً على شفا قناعة من الطرف السيئ!

المشكلة أن الشعور بالذنب فأرٌ كبير، لا يمكن أن أسمح له بالتسلل إلى داخلي ليقرض ما يشاء. عليّ دائماً أن أكون طيباً بما يكفي لإبقاء ضميري بعيداً عن التدخل! لقد كان تبريري لما فعلته مقنعاً لي على الأقل!

أن تموت عندي امرأةٌ كنتُ أعانق جسدها قبل أيام، أن تموت أمامي مثل قنديل قديم، وأبقى أنا! أن تموت موتاً حقيقياً كهذا الذي يجعل الناس يختفون من وجه الأرض! شيء لا يمكن أن أحتمله أبداً! كيف هو؟ كيف يمارسون هذه الأدوار؟ لقد زججتُ بنفسي في مسرح صعب من دون أن أنتبه إلى مستوى صعوبته، كهذا من دون أن أحفظ النص، وأفهم حواره المفترض، وتكون عندي فكرة واضحة على الأقل حول ما يجب أن أقوم به من أجلها، ومن أجل نفسي، ومن أجل المشهد العام في الحياة!

كانت محاولة مني للمساهمة في تحقيق أمنياتها الأخيرة، أو لأقل إني كنتُ كاذباً بعض الشيء. لم يكن هذا وحده ما يسوق أقدامي

إليها، كانت هناك أشياء أخرى، رغبات متضاربة، عدة أفكار اجتمعت في رأسي، واتفقت من دون أن أبتَّ فيها على أنه لا بأس من قضاء بعض الوقت عند صوفيا. ولكني أسعى إلى أن أقتنع بأني حاولتُ قدر استطاعتي، حاولتُ حتى الرحيل الغير مبرر من بلدي والمكوث ببيروت شهرين، حاولتُ حتى دفن مشاعر الإشفاق والرفض وأنا أمنحها كل ما ترغب فيه بصعوبة، حاولتُ حتى حدّ صناعة طفل ميت، أبعثه مع صوفيا إلى المكان الأخير من دون أن أعرف عنهما شيئاً بعد ذلك. ولكن عندما حاولتُ أن أبقى إلى آخر المطاف، كانت المحاولة غريبة جداً، إلى الحد الذي لم أحتمل غرابتها أبداً، فهربت، حتى أعيد ترتيب الأشياء المألوفة من حياتي، والتي تكاد تختفي، وأنا أسقط في حقل هذه الغرابة!

لقد صرتُ أتوقع رحيلها فعلاً بعدما رأيتُ الإغماءات الأخيرة، والوسادة المليئة بسعال الدم، فلماذا إذاً تأجلت غصتي المتوقعة بها إلى يوم الرحيل نفسه؟ لماذا كان يجب أن يأتي الحزن في الشتاء، كما يأتي البرد؟ وفي بيروت، سيدة الدخول اللامعتاد في أقدار الناس العاديين؟!

الآن وقد ابتعدتُ عنها، كأن مشاعري حقلٌ محصود، لا تدري ماذا كانت، وماذا ستُزرَع في الموسم المقبل! تنفستُ أنفاساً غريبة، لأنه في أي لحظة الآن ربما تصبح صوفيا في العالم الآخر، ولا تملك فرصة لتمرير عتابها، أو لأن آلامها انتهت، والتقت بإله تؤمن به جيداً، أو لأني خالٍ من أي مسؤولية عاطفية الآن.

هل انقطاعنا الأبدي عن الراحلين صعوداً هو من رحمة الله، أم من قسوته؟ أم إنه مجرد جزء من برنامج حكمته الذي لا ينتهي، هو الذي تضطرنا عقائده إلى تصنيف كل أقداره في حيز الحكمة الرحيمة؟ ومهما جاءت غير رحيمة، يجب أن تبرر الحكمة كل شيء! بينما تضطرنا مشاعر فطرية أخرى أحياناً إلى تصنيفها في الجانب الآخر الذي تفرضه سلطته المطلقة في وضع الأقدار: القسوة الإلهية!

كم سيكون الأمر حكيماً ورحيماً معاً، لو أني استطعت أن أجعل صوفيا تبتسم مرةً أخرى! لو أني أملك أن أطلَّ من نافذة سرية على عالمها الآخر الذي صارت إليه، والذي كانت تؤمن بشفافيته حدَّ الاشتياق، هي المترعة بأمراض الوطن عندما كان جسدها معافىً، وبأمراضها هي عندما تعافى وطنها!

وتلك الورقة المعلقة فوق سريرها، شهادة الموت، لماذا جاءت صادقة إلى هذا الحد؟! بين ملايين الأوراق الكاذبة التي تُطبع في الوطن! لماذا الموت وحده هو أصدق الصادقين عندنا، بينما الحياة كلها مجرد مشروع بهتان كبير، يلفنا من أول الطريق إلى آخره!

الموت، الحياة، الكلمتان الأكثر استحواذاً على ذهني منذ عدتُ إلى الرياض، فيهما أفكر، وحولهما أقرأ، وبهما أحزن، وأضجُّ، وأسكن، وعليهما أنام، وأستيقظ، وأتخذ القرارات اليومية التافهة. ماذا تفعل بي التجارب؟ مجرد امرأة تكاد تموت! بل كانت امرأةً مرصودةً بالموت من قبلُ، ومحدودة الحياة حتماً، ما يجعل موتها مختلفاً عن الموت المعتاد، وحياتها في الأيام الأخيرة مختلفة أيضاً عن الحياة العادية، وأنا أحد شواهد هذا الاختلاف.

من المؤذي حقاً أن يكون رجلٌ عاديٌ مثلي شاهداً على حالة اختلاف كبيرة كهذه!

بقي عندي من صوفيا صليبٌ فضي صغير، ملفوفٌ في قطعةٍ حريرية ملساء، وموضوع بعناية في صندوق من القطيفة الهادئة، أعطتني إياه لأني طلبته منها، إنفاذاً لرغبة صرّحت بها، ولم تجادلني كثيراً...

قالت لي:

- لو كنتَ مسيحياً لأعطيتك هذا الصليب، كان لأخي، لا أعلم لمن سأبقيه!

- أتظنين أني لن أحافظ عليه؟

- لا أدري!

- أعطيني إياه، وأعدكِ بأن أحافظ عليه!

وهو الآن في درجي، وأنا أتساءل عما دفعني إلى ابتلاع سكين صغيرة كهذه لتدمي جوف الذكرى! ألا تكفيني أوراق عقلي حتى أصر على الاحتفاظ بدليل مادي كهذا على ما كان؟ هل يجب أن يعرف الناس أن الاحتفاظ بالتذكارات قد يكون جريمة صغيرة بحق مشاعرهم؟

أخذته منها آنذاك لوجه الاختلاف، لا أكثر! كانت تفرض نسقاً من الثبات يمنعها من إعطائي الصليب كوني مسلماً. هذا القانون غير المكتوب حرضني على أن أتحداه أمامها، أن أبرهن لها قدرتي على

تغيير القوانين الثابتة. ربما كانت صوفيا تستفزُّني بذكاء لآخذه، وهي تنوي إعطاءه لي منذ البداية، وإلا لما عرضته عليّ.

عندما نفضتُ حقائبي، أبقيتُه في درجي الكبير ذاك، في مدينة لا تحب الصلبان حتماً. تركته في ركنٍ منه يتوجس كغريب، ويحاول أن يحسب احتمالات تفاهمه مع الأشياء القليلة الأخرى، وفي الدرج نفسه علبة طلاء أظافر مستهلكة حتى النصف، من بقايا زوجتي، وقصاصات من مجلة تحمل صور عارضات كانت تجمعها، وأعواد آذان مبعثرة، وقرآن.

(١٦)

كأن الوجع سيارة القمامة، دائماً يأتي في الصباح!

كأنما يصر الغيب على أن يجعل صدري نظيفاً جداً، بعد أن تراكمت فيه أشجانٌ مهملة لم يكن عندي وقتٌ للوقوف عليها، وصوفيا تعلّق كل شيء، وتُوقف الحياة في حلقي، ولا تتحرك.

ربما إذا تحرَّكَتْ وجدتُ لنفسي فرجة زمنية كبيرة، أستطيع أن ألقي فيها بكل الفائض من وقت الصباح، حتى لا أمارس فيه سلوكاً قلبياً ما، كمناقشة الشجن مثلاً. ربما أن حضور صوفيا وغيابها لن يغيّرا أكثر من عنوان قلقي، أما مضمونه فسيستمر، ربما أنا هو العنصر المختل في حياة متزنة دائماً، بي أو بدوني.

لم أُولد مبدعاً، ولا كاتباً، ولا فناناً، ولا ذا فلسفة، وإلا لكان عندي ما أتعزى به من الأمور أمام أسئلتي: «ماذا أفعل؟ وما دوري؟ وماذا عليّ؟». أنا مجرد رجل أدمن المتحول من الأشياء حتى ترهقه الأشياء الرتيبة أكثر من اللازم. ربما لأن عقد الثلاثين كان عقداً جديداً وجدتني قد أفسدتُ مناطق واسعة في حياتي، وكتبتُ في أوراق خاطئة، وركضتُ حيث لا يوجد طريق، وطلّقت زوجتي من دون

سبب مقنع للآخرين، ولا لها هي. هذه هي أيامي التي مضت، فأي مبرر حقيقي يبرر حزني، لا شيء! إلا أني مثل المعتوه، إذا لم يجد ما يفعله آذى نفسه!

ربما لأني نافد الصبر في غرف الانتظار، أنا نافد الصبر في غرف العمر أيضاً، أتوتر بعد عدة دقائق هناك، وأحزن بعد عدة سنوات هناك. هي سُنَّةٌ شخصية، وكما أنه عليّ أن أُحضر جريدة عندما أضطر إلى الانتظار، فعليّ أن أرحل باتجاه امرأةٍ لا أعرفها عندما أضطر إلى الكآبة! وعندما أقرأ لأتحاشى أشواك الوقت، أجدني سافرتُ إلى بيروت أيضاً لأتحاشى شجناً طارئاً يأتيني من سلوك حياتي القديم، لأني لا أتحمل!

ديسمبر هذا عجوزٌ جداً، وثقيل مثل أعمار الفاسقين! وكل صباحٍ أستيقظ فيه، أجده يمشي على وجهي كعنكبوت أبيض، وينسج بين ملامحي كل الأحداث والحالات، حتى لا أنساها، وحتى أظل محاصَراً بقلق لا أعرف منشأه. إنه يجمد لي ذاكرتي، ويثبتها أمام وجهي، كي لا تغيب!

كأن السرير يتكلم! وإلا فمن أين تأتي هذه الأصوات التي تحوم حول رأسي مثل الرهبان؟ من الذي يؤلف أغنية الصباح ويعلقها في جبيني مثل جرس؟ إذا كنتُ نائماً عن ذاكرتي طوال الليل، فكيف أعرف أنها لن تختار لي من بطنها وجهاً شاخصاً، ثم تضعه على عتبة رأسي، حتى أنزلق به أول ما أستيقظ!

وكيف تعرف هي أي يوم تختار، لتكتمل منظومة متسلسلة من

الحكايات القصيرة في اليوم، تكمل سقوطي، وتضمن حداً أدنى من الوجع، والآلام. ها أنا الآن منذ تبخرَ ضباب النوم تدريجياً، وعرفتُ أني أستيقظ في سريري، وأنا أهجس بصوفيا!

هل ماتت يا ترى؟ إذن كيف أصبحت عندها تلك القدرة السماوية على اختراق صباحي إلى هذا الحد؟ أليس الموتى فقط هم الذين يخولهم الله اختيار النزول في أفكار من يريدون، ويحتلون أحلامهم؟ هل صوفيا ميتة الآن؟ يا الله، أين هاتفي!!

- كيف هي صوفيا بربك؟

- بتفيق، وبترجع للغيبوبة، متل العادة، بس تحسنت شوي، صارت تحكي أحياناً.

هكذا إذاً! صوفيا أفاقت، أدركت ربما أني غير موجود، وسلّطت ما بقي من خواطرها مع الله لتحرق عليّ صباحي! لتبعث لي قنبلة الشجن الحارقة تلك، في هذا البكور، مثل رجل القمامة!

رحت أترنح في مشية النوم المتوترة نحو حمامي، أفتح صنبوراً، وأُلقي بصري في حوض الاستحمام المقعر وهو يلتقط قطرات الماء المنهمرة فوقه بدقة، وينظمها في خيوط موقتة تتجمع أسفله، تبدأ خيوط خيالاتي في نسج بعضها البعض. أشعر كالعادة بوطأة قناعة ثقيلة تجثم فوق نضال الدحض، ولكن هذه المرة أقوى، وأشد حضوراً. أشك في أنه أثناء النوم، كان هناك من يعبث في رقعة أفكاري، وينكح العقل النائم بشكل مفضوح!

من جعلني وحيداً هكذا! أستيقظ على هزات الشجن مع سيارة

القمامة! لماذا أفرّش أسناني بفرشاتي بينما فرشاة زوجتي مائلةٌ منكسرة، وكأنها تشعر بانسلاخ بطيء عن حاضرٍ لم يمت بعد؟

هل مرت سنة أو أكثر؟ وقفتُ قليلاً وأنا أحسب الشهور بعقلٍ ما زال يتثاءب، وما زالت فرشاة زوجتي في مكانها، ما زالت تقف مثل حارس متحف على باب صباحاتي ومساءاتي التي أغتسل فيها من يومٍ لم تعد فيه.

ما أسوأ أن أضطر إلى طرد امرأةٍ من حياتي بعد أن أدخلتها بكل رضى!

وما أسوأ أن تظل فرشاة أسنانها واقفة داخل إطار الزواج القديم، وكأن غيابها أسبغ عليها قدسية فجعلني لا أمسها، أنا الذي كنتُ لا أبالي أي الفرشاتين أستخدم ما دامت هي لا تبالي أيضاً، وما دمتُ أعرف أنهما ستبليان، وسنشتري أخريين، ثم أخريين، ثم أخريين، ونظل معاً.

صرتُ الآن أستبدل فرشاتي أنا، وتبقى فرشاتها نفسها، وحيدة، واقفة بانكسار، ومرغمة على التآلف مع فرشاة جديدة كل شهر!

خلعتُ ملابسي، ودخلتُ في الماء البارد دفعةً واحدة، علّ تلك الصدمة المائية تطرد من جبيني محاولةً دؤوبة من الذكرى للمزج بين امرأتين في صدغي، وتمزيقي بين رائحتيهما!

هل يا تُرى فتحات الدش الصغيرة المخذولة تلك تتساءل لماذا لم يعد جسم زوجتي يقف تحتها منذ سنة! ولهذا هي تلفظ عليّ الماء بتأفف، وضِيق. هل فتحات الدوش الصغيرة تلك ذكورٌ فيشتهونها، أم

إناثٌ فيشتهينني؟ أم مجرد متفرجين ملولين مثلي كان يطيب لهم أن يتجدد المشهد، وتتغير الأجساد فقط؟

جففتُ جسمي بسرعة. ما ترك المجال لبقع مائية أن تظهر في نسيج ملابسي الداخلية، دلالة تجفيف غير مكتمل، كالأفكار المبتورة عمداً في جبيني، لأني اعتبرتُ أن اكتمالها مؤذٍ حتماً، وكنتُ قد حسمتُ الأمر فعلاً، واتخذت قراري.

تناولتُ الأشياء المعدودة التي يجب أن تكون في جيبي كل يوم، وخرجتُ من المنزل. كانت يداي ثابتتين على المقود، مثلما هو عقلي ثابتٌ على قراره الصباحي المفاجئ. وجدتني أُوقف سيارتي في ذلك الموقف الخالي، أمام مكتب السفر.

(١٧)

بيروت مرةً أخرى . . .

حالةٌ من اللاتوازن في لقاء مدينة! حالةٌ لا أعرفها جيداً، ولكني أتأبطها بفتور، وأقطع بها الشوارع من دون التفاتاتٍ كثيرة، شاعراً بأني أستهلك الكثير من القلق في التفاتاتٍ لا جدوى منها.

حالةٌ من اللاتجانس في نقاش مكان، أخترع نظراتٍ جامدة، والأشياء تتراءى لي من ثقب الكدر وكأنها آياتٌ محرّفة، أقدسها ولا أطيعها، أتكلم مع السائق باحترام ولا أسمح له بالثرثرة، وأردّ التحية بهدوء ولا ألقي تحياتٍ جديدة، ولا أدخن في الأماكن المزدحمة، ولكني ألقي سيجارتي في عرض الرصيف.

عدتُ بعد أكثر من شهر لأزورها، وقضيتُ في بيروت يومين حتى الآن، عاجزاً عن الوقوف أمام مدخل عمارتها. تخونني قدماي أمام المصعد، يخونني وجهي أمام الباب غير المألوف من الخارج. غريبةٌ هذه المرأة التي تقوى أكثر، كلما تمرض أكثر!

أقرر أن أقتنص لحظة يقظة منها. اتفقتُ مع الممرضة أن

تبلغني، وكان فندقي قريباً، وعندما اتصلت بي تلك الظهيرةَ الغائمة، هرعتُ إلى هناك متأنقاً جداً، ولا أدري لماذا. أخبرتني الممرضة أنها ربما لن تشعر بي، وأخبرتني أنها لو شعرت بي، وبدا لها أن وجودي قد يخرّب مزاجها، فستضطر إلى أن تطلب مني الخروج.

كانت عيناها مثل هرَّين ميتين، وجسمها منطفئاً تماماً، وكأنّ الموت قد سرق نصف الفتاة ليلاً وهرّبه إلى المخبأ العلوي! ولم يبق إلا القليل جداً من الحياة في الجسد المعطوب. أصبحت الأنابيب التي كانت موقتة، دائمة الاتصال بعروقها، ولا تكاد تفيق من إغماءة حتى تسقط في أخرى، والجسد ينطفئ عضواً تلو آخر، كما ألمحت الممرضة.

هنا، في الغرفة التي حركناها شهرين من الزمان، كان كل شيء يعلن استسلامه بالفعل. شحبت كل الأشياء، من ملاءات السرير حتى مشابك الشعر، كل المكان كان يموت مع صوفيا، كله كان ينحني في خنوع لتلك الورقة الباردة التي لا أدري كيف وجدتُها معلقة مرة أخرى فوق رأسها!

قبّلتها، أذكر أني انحنيتُ على شفتيها بشفتيّ، وبمجرد لمسهما كان عليّ أن أتشبث بالشفتين قليلاً لأصنع القبلة. وأذكر أن شفتيها كانتا منهكتين جداً، حتى أنهما انسحبتا مع فمي، ولم تستطع صوفيا أن تعيد انطباق شفتيها إلى الوضع المعتاد، وظلت شفتاها مبعثرتين. صوفيا عاجزة حتى عن أداء دورها في القبلة كما ينبغي، تركتني أفعلها أنا، بينما شخصت بعينيها في جبيني وكأنها ظنّت أني ملك الموت.

لم تنطق، وشفتاها ظلتا غير منطبقتين بعد قبلتي الحزينة، حتى فتحت فمها لتقول شيئاً لم تقله، ثم أغلقته مرةً أخرى، فانتظمت الشفة فوق الشفة، ثم مال رأسها على المخدة، وراحت تتأمل شيئاً بعيداً لا يراه غيرها.

- كيف أنتِ، صوفي؟

هزّت رأسها بشكل منهك جداً، وارتجفت قليلاً وهي تحاول أن تدفع كلمةً متعبة من آخر حلقها:

- منيحة..

خرجت ملوثة بالبحة، هذه الكلمة التي كان يُفترض بها أن تنبئ بأنها بخير، يُفترض! ولكن الطريقة التي خرجت بها، كانت تصرخ بالنفي، والنفي!

أليس الموت نفياً أصلاً؟ قرارٌ إلهيٌّ حازم بالخروج من الحياة، قرارٌ لا يمكن مناقشته، ولا استئنافه، ومن الكفر اعتباره قراراً خاطئاً، فعندما يأتي الموت علينا أن نؤمن بأننا نستحقه، ونحمل حقائبنا، ونستقلّه نحو عدمٍ ما!

وهو آتٍ حتماً، وسيدخل هذه الغرفة بلا ريب، إن لم يكن قد دخلها من قبلُ في زيارة تجريبية، وراح يضطجع هناك على الأريكة، يقلّم أظافره، ويطقطق أصابعه، في انتظار أن تكتمل رغبته تماماً، فينقضّ عليها!

بيروت التي لقّنتني الحياة منهجاً طبيعياً جميلاً في طفولتي، ها هي تلقنني الموت غصةً طويلةً مُرَّة؛ صوفيا، وكل ما رأيته في عينيها طوال الأسابيع، كانت منهج موت متكامل، موت مثالي جداً!

صوفيا، يا جميلة، يبدو جسمكِ الآن قد تغيرت حالته البشرية، وبدأ يشردُ مثل فوتونات الضوء، معلناً ماهية أخرى في الكون اقتربت. أيتها الخاشعة مثل ورقة لوتس، غداً ستظل الدنيا بحجمها المعتاد نفسه، ولكن حيرتي ستكبر، لأني أعرف أن شيئاً ما في هذه الدنيا أصبح صوفيا، ولا أعرفه!

أخبريني ماذا ستكونين؟ نجمة بحر؟ ورقة حظ؟ أوراق نبي؟ أخبريني كيف ستتحركين في الدنيا، اتركي لي وصيةً على شكل خارطة، أتبعُها إليكِ كلما أوغلتُ في البلادة، واخترتُ لنفسي عملاً مختلفاً في الحياة. . .

اشفعي لي عند ربك!

صوفيا، يابسة الشفتين، هل من كلام أخير؟ آسف لأني لم أخبركِ إلى أين ذهبت. هذا لا يعني أن تتركيني من دون عنوان. صوفيا لقد عدت، هل تعودين؟ اتركي عندي رقم غيمة، ارسمي الطريق على جبيني بإصبعك الواهنة هذه وسأتذكره حتماً، أعطيني أي شيء منكِ يُضيءُ باتجاهكِ يوماً ما، قلامة ظفر، خصلة شعر، أعطيني زيتوناً من عينيكِ، وخبزاً من ظهرك. . . سأجيء!

لا تمرقي هكذا، اتركي لي تعويذةً تطردُ لعنات الوجوه من

بعدكِ. لقد تعبتُ لنكون معاً، اجعلينا نبقَ معاً في الخلف هناك، لا أريد أن تكوني شفقاً وأكون تراباً، لا أريد أن تكوني ترتيلاً وأكون صمغاً، لا أريد أن تكوني موسماً وأكون مجرد تذكرة! إني أختار أن أكون معكِ، خبئيني، وسألتزم الصمت حتى نعبر. . .

أعدكِ بأني سألتزم الصمت حتى نعبر يا صوفيا!

أعدكِ بأني سألتزم بقوانين كثيرة لا يعنيني أن أفهمها. أعدكِ بأني سألمس الأشياء ولا أنتظر أن تلمسني. أعدك بأني سأفتح ذرة الضوء ذات يوم بملقط لأفتش عن المنبع. أعدكِ بأني سأصلي في أماكن لا تخطر لكِ ببال، وأني سأمارس سجوداً عجيباً، ولغةً تجعلني ألتصق بكائنات روحكِ أينما كنتِ!

سأحلم، اطرقي بيت أحلامي رجاءً، سأتركُ في قلبي تفاحاً، كوني تفاحة يا صوفيا. سأجعل الأطفال يبتسمون، كوني أسناناً لَبَنية يا صوفيا. سأكون مسيحاً لا يختلف حوله الناس، كوني لحيتي وصدري يا صوفيا. سأكون أي شيء تتفقين أنتِ وربكِ عليه، ولكن كوني موجودةً يا صوفيا، عارٌ على الغيب أن يضيّعكِ في خزائنه!

صوفيا. . . صوفيا!!!

* * *

في فبراير، ماتت صوفيا في مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت، بعد أن نقلتها الممرضة في سيارة الإسعاف إلى هناك إبراءً لذمتها، واختصاراً لأي إجراءات قانونية معقدة قد تكون. ولم تبكها

شقتها البحرية كما أوصت، ولم تشتبك روحها بالموسيقى وهي تصعد كما أرادت، ولم يُشر تقرير الطبيب المناوب إلى أنها كانت حبلى، ولم أقبّلها، وما زالت على طاولتها الصغيرة في الشقة أربع أوراق من التقويم، تحمل أمنياتٍ. . . ضائعة.

❊ ❊ ❊

أشعر بالملل!

الرياض، فبراير ٢٠٠٤